



جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الأنساق الثقافية المضمرة في الروايتين الأوروبية والأمريكية

إعداد
رشيد عصام مراد عناية

إشراف
أ. د. خليل عودة

قُدِّمَت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، من كلية الدراسات العليا، في جامعة النجاح الوطنية، نابلس - فلسطين

۲.۲۲

الأنساقُ النَّقَافِيَّةُ المضمرةُ في الروايتينِ الأوروبيَّةِ والأمريكيَّةِ

إعداد

رشيد عصام مُراد عناية

نُوقِشتْ هذه الأطروحة بتاريخ ٢٤/١١/٢٠٢٢، وأُجيزت:

 التوقيع	أ. د. خليل عودة
 التوقيع	المشرف الرئيسي
 التوقيع	أ. د. عمر عتيق
 التوقيع	الممتحن الخارجي
	د. طه طه
	الممتحن الخارجي
	د. أحمد قريها
	الممتحن الداخلي

الإهداء

إلى من علّمني الحرفَ في سنِّ الثالثةِ وقراءةَ الصّحفِ في سنِّ الرَّابعةِ، وأنثاَ غرَفتي بالكتبِ والمجلّاتِ،

فزرعا حبَّ والثّقافةِ فيّ، ورسّخا عشقَ التّعلّمِ والتّعليمِ في نفسي؛ إلى شمعَتَي حياتي: والديّ

إلى الحبيبةِ؛ رَجَمِي الأولى، أختي وصديقتي: رعد

إلى من أسنّدُ بهما عضدي، وبهما أشدُّ أزرِي: إخوتي رغيد ورفيد

إلى نورِ حياتي وحَبِّي الأبديّ؛ توأمَ روحي وضياءِ عيوني ونبضِ قلبي: زوجتي الغالية حنين

إلى أُملي في الحياةِ وزينةِ دُنيتي: ابني آدم

إلى من عدّاني ابنًا لهما ورأيتَ فيهما أهلاً وعزوةً: خالد وخزيمة

إلى صديقي ورفيقِ دربي: أحمد عودة

إلى أخي وصديقي الصّحفيّ المميز: حافظ منصور

إلى أستاذي وأبي الرُّوحيّ: عبد السّلام عطاري

إلى كلّ شُعلةٍ أضافتَ إلى شمسِ معرفتي ...

أهديكم هذا الجهدَ المتواضعَ

الشكر والتقدير

أحمد الله حمد الشاكرين، الذي وهبني العزيمة وحب العلم لإتمام هذا العمل، وبعد:

أتقدم بالشكر والتقدير إلى أستاذي ومشرفي؛ الأستاذ الدكتور خليل عودة، الذي لا توفيه الكلمات حقه في الشكر والثناء لما قدمه لي من دعم وتشجيع وتوجيه، خلال مشواري الجامعي، وخلال كتابة هذه الأطروحة.

وأقدم بعمق شكري وخالص تقديري، واحترامي إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية، الأستاذ الدكتور محمد جواد النوري، والأستاذ الدكتور عادل أسطة، والدكتور عدوان عدوان؛ لمساندتهم، ودعمهم في فترة الدراسة الجامعية.

والشكر موصول إلى الممتحنين؛ لإثرائهم الأطروحة، في المناقشة، وحسن التوجيهات.

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل عنوان:

الأنساق الثقافية المضمرة في الروايتين الأوروبية والأمريكية

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

رئيس جامعة وادي عربة	اسم الطالب:
	التوقيع:
24/11/2022 - ٢٥٢٠/١١/٢٤	التاريخ:

فهرس المحتويات

الإهداء	ج
الشكر والتقدير	د
الإقرار	هـ
الملخص	ز
المقدمة	١
الفصل الأول: مفهوم النقد الثقافي في ضوء الدراسات النقدية الثقافية	٤
مفهوم الثقافة:	٤
مفهوم النقد الثقافي في ضوء الدراسات الثقافية:	٨
أسس النقد الثقافي ومرتكزاته في مشروع الغدامي	١٨
أسس النقد الثقافي ومرتكزاته:	٢٦
الفصل الثاني: نسق الهوية في الروايتين الأوروبية والأمريكية	٢٩
ملخص رواية لا تدعني أرحل أبدا لكارو إيشيغورو	٢٩
نسق الهوية في رواية لا تدعني أرحل أبدا	٣١
نسق الهوية في الروايتين الأوروبية والأمريكية	٣٧
التطور التكنولوجي سببا في أزمة الهوية	٦١
الفصل الثالث: نسق الحتمية في الروايتين الأوروبية والأمريكية	٦٤
ملخص رواية "عبري"، إلى حد ما" لبينديكت ويلز	٦٨
نسق الحتمية في الأدبين الأمريكي والأوروبي	٦٩
التطور التكنولوجي سببا في مشاكل الحتمية	٩١
الخاتمة	٩٥
قائمة المصادر والمراجع	٩٦
Abstract	b

الأنساق الثقافية المضمرة في الروايتين الأوروبية والأمريكية

إعداد

رشيد عصام مراد عناية

إشراف

أ. د. خليل عودة

الملخص

تناولت الدراسة الحالية الأنساق الثقافية المضمرة في الروايتين الأوروبية والأمريكية؛ متخذة من روايتي لا تدعني أرحل أبداً لكازو إشيغورو، وعبقري ... إلى حد ما لبينديكت ويلز أساساً، بالإضافة إلى روايات أخرى غربية وأمريكية تمت الإشارة إليها في متن الدراسة نظراً للتقارب الثقافي والحضاري بينهم.

اشتملت الدراسة على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. وتناول الباحث في المقدمة تمهيداً موجزاً عن الموضوع المدروس، وهدف الدراسة وما تسعى إليه، بالإضافة إلى منهجيتها.

أما الفصل الأول فقد عني بتأصيل مفهوم النقد الثقافي في ضوء الدراسات الثقافية، بدءاً من مفهوم الثقافة لغةً واصطلاحاً، مروراً بالدراسات الثقافية ونظرة النقاد الثقافيين إلى النقد الثقافي من حيث مفهومه والأسس التي يرتكز عليها والنظريات التي يتبناها، ثم أسس النقد الثقافي في مشروع الغدامي، وأسس ومركزاته كما فهمه الباحث.

في الفصل الثاني ناقشت نسق الهوية الشخصية والجنسية والعرقية والأزمة المضمرة في ذلك النسق في الأدبين الأوروبي والأمريكي منطلقاً من رواية "لا تدعني أرحل" لكازو إشيغورو.

وفي الفصل الثالث ناقشت نسق الحتمية وما يرتبط به بالإرادة الحرة والمستحدثات التكنولوجية في الأدبين الأوروبي والأمريكي؛ مرتكزاً أساساً على رواية "عبقري ... إلى حد ما" لبينديكت ويلز.

وفي الخاتمة، وضع الباحثُ النتائجَ التي توصَّلَ إليها، وخلاصةَ دراستِهِ.

الكلمات المفتاحية: الأنساق الثقافيَّة، الرواية، الأوروبيَّة، لكازو إشيغورو، بينيديكت ويلز.

المقدمة

لقد سادت صورة نمطيّة في شتّى أرجاء العالم، عن التّحضّر الأوروبيّ والأمريكيّ، وديمقراطيّة هذين القطبين التي تمّ التّرويج لها بإعطاء الحريةّ شبه المطلقة للمواطنين من خلال سنّ القوانين المختلفة التي أصبحت تحمي فئات المجتمع بلا حدود، وهذا الأمر وإن بدا في ظاهره إيجابياً، إلّا أنّه تسبّب بأزمات مهولة مثل أزمة الهويةّ وأزمة الحتميّة وما يرافقهما من أزمات كثيرة تتسبّب في تيه الفرد وتتصلّله من مسؤوليّاته، ممّا يؤدّي مجتمعه الصّغير "عائلته" أولاً، وصولاً إلى مجتمعه الكبير؛ فيكون في حالة تخبط وعشوائيّة ليس لديه نقطة ارتكاز يستند إليها.

وقد أحدثت التكنولوجيا والوسائل العلميّة الحديثة ثورة كبيرة في مجالات الحياة جميعها؛ حتّى أصبحت ركناً من أركان الوجود الإنسانيّ ومؤثراً واضحاً فيه بالشكّلين الإيجابيّ والسّلبيّ، وشريكة في رسم المشهد الثقافيّ للمجتمعات المختلفة. ولا شكّ أنّ الأدب في معظم حالاته - إن لم يكن فيها كلّها - يجسّد المجتمع الذي يحيا فيه الأديب، أو هو "مرآة للمجتمع"¹ غير أنّ الانعكاس الأدبيّ لهذا المجتمع يختلف باختلاف الرّائي والقارئ للعمل الأدبيّ، خاصّة وأنّ العمل الأدبيّ مفتوح على مصراعيه للقراء على اختلاف معتقداتهم وطرائق تفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافات مجتمعاتهم، ممّا يجعل إمكانات التأويل لانهائيّة.

ولا تعنيني في هذه الدّراسة الأجناس الأدبيّة كلّها، بل ستقوم على سبر أغوار الرواية؛ ذلك الشّكل الأدبيّ المهيمن²، والأكثر رواجاً في العصر الحديث، وربّما يكون الأكثر تأثيراً أيضاً؛ نظراً لأعداد قارئيه الكبيرة عبر العالم، وإمكانية تحويله إلى عملٍ فنيٍّ آخر، وهو العمل السينمائيّ الذي لا يخفى على اثنين تأثيره،

¹ Nariman, Sadraddinova Taira, and Nasirli Konul Sabir. "Literature-mirror of society". Научный журнал 5 (39) (2019).p.56.

² ستالوني، إيف: الأجناس الأدبيّة، ترجمة: محمد الزكراوي، مراجعة: حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، ٢٠١٤، ص١١٧.

فهو مفعّم بالعناصر السيكلولوجيّة، وزاخّر بالدراما الإنسانيّة التي يتمّ تناولها في العديد من الرّوايا المختلفة^١، وهذه الرّوايا المختلفة هي ذاتها التي تمنح قراء الرّواية حقّ التحرّر من النّظرة الأحاديّة للمواقف والأحداث داخل الرّواية، فالرّواية ليست عملاً بسيطاً فارغاً أو واضحاً، بل هي "روح التّعقيد، وكلّ رواية تقول لقارئها إنّ الأشياء أكثر تعقيداً ممّا تظنّ"^٢ ومن هنا سيعمد الباحث إلى توظيف أدوات النّقد الثقافيّ للكشف عن الأنساق الثقافيّة والتّفاعلات الديالكتيكيّة بين الظّاهر منها والمضمّر فيها، كون هذا المنهج يعتبر النّصّ "وسيلةً وأداةً، لغاية مبدئيّة وهي الأنظمة الدّائيّة في فعلها الاجتماعيّ في أيّ تموضع كان، بما في ذلك تموضعها النّصويّ"^٣ وذلك عبر روايتين أساسيتين، وهما لا تدعني أرحلُ أبداً (٢٠٠٥) للأديب البريطانيّ الحاصل على نوبل كازو إيشيغورو، ورواية: عبقرى ... إلى حدّ ما (٢٠١٣) للكاتب الألمانيّ السويسريّ بينيديكت ويلز، وكلّتاها تتناقش مسألة التّطور العلميّ الذي من المفترض أن يُحسّن الحياة البشريّة ويسهّلها (النّسق الظّاهر) إلّا أنّنا نجدّه إذا نظرنا بعمقٍ في الرّوايتين يعمل على استغلال الإنسان وجعله أداة بلا روح، كما هو الحال في رواية "لا تدعني أرحلُ أبداً" أو على الأقلّ يتسبّب بالمآسي لهم كما هو الحال في رواية "عبقرى ... إلى حدّ ما" (النّسق المضمّر)، ممّا يجعلنا نعيد النّظر وفق إطارٍ شموليّ لما هو جيّد وما هو سيّء، وما هو خيرٌ ولكنّه في مضمّره شرٌّ، وما هو جميلٌ أيّ ولكنّه يحمل في داخله قبحاً على المدى البعيد.

مشكلة الدراسة

تكمن مشكلة الدراسة في تناول النّظريّات النّقدية الحديثة للرّواية بطريقة أحاديّة تركّز على الصّورة الإيجابيّة أو الجماليّة في المضمون الرّوائي؛ ولمواجهة هذه المشكلة، ستعمل هذه الدّراسة على الكشف عن الأنساق المضمرة وما تسبّب من أزماتٍ وراء تلك الأنساق الإيجابيّة.

^١ يونج، سكيب داين: السينما وعلم النفس علاقة لا تنتهي، ترجمة: سامح سمير فرج، مراجعة: إيمان عبد الغني نجم، هداوي، القاهرة، ط١، ٢٠١٥، ص١٥.

^٢ Kundera, Milan. "L'art du roman: essai". Paris, Éditions Gallimard, 1986, p.30.

^٣ الغدامي، عبد الله: النقد الثقافي؛ قراءة في الأنساق الثقافيّة العربيّة، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٣، ٢٠٠٥، ص١٧.

وبناءً عليه، فإنّ هذه الدّراسة ستسعى إلى الإجابة عن الأسئلة التّالية:

١. ما هو النّقد النّقّافي؟
٢. ما هي أدوات النّقد النّقّافي؟
٣. كيف تجلّى نسق الهويّة في الرّواية الأوروبيّة والرّواية الأمريكيّة؟
٤. كيف تجلّى نسقُ الحنميّة في الرّواية الأوروبيّة والرّواية الأمريكيّة؟

أهداف الدراسة

تسعى الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١. التعريف بالنّقد النّقّافي وأدواته الحديثة.
٢. الكشف عن الأنساق النّقّافيّة المضمرة خلف ستار الإيجابيّة والحضارة في الأدبين الأوروبي والأمريكي.
٣. توظيف النّقد النّقّافي في دراسة الرّوايات الأوروبيّة الحديثة.

منهج الدراسة

سيلجأ الباحث إلى المنهج النّقّافي الذي يمنح الباحث قدرةً للكشف عن الأنساق المضمرة داخل الرّوايات التي يدرسها، بالإضافة إلى استخدام المنهج التّأويلي الذي يعطي النصّ مساحةً واسعةً للحركة، ممّا يساهم في إثرائه.

الفصل الأول

مفهوم النقد الثقافي في ضوء الدراسات النقدية الثقافية

يُقدِّم الباحث في هذا الفصل مفهومًا للثقافة، ثم يتطرق للنقد الثقافي وما يعنيه في ضوء الدراسات الثقافية، ثم يتحدث عن أسس النقد الثقافي ومركزاته، ويبيِّن الإشكاليات التي وقع فيها الغدامي الذي يُعدُّ أحد رواد النقد الثقافي العربي، كما تُعدُّ أعماله مرجعًا معتمدًا لدارسي النقد الثقافي.

مفهوم الثقافة:

إنَّ كلمة "Culture" والتي تُترجم لدى العرب بالثقافة، مشتقة من اللاتينية، من الفعل "Edlere" والذي كان يعني الرعاية والزراعة، وقد مرَّ المفهوم بتطورات عديدة، فكان في الثقافة المسيحية يعني العبادة، وفي المفهوم الفرنسي القديم عنى الأزياء الراقية، إلى أن أصبح يعني تدريب العقل والجسم، والتطوير وصقل مهارات التفكير والأخلاق، والجانب الفكري من الحضارة، وفي نهايات القرن التاسع عشر أصبح يعني شكلًا معينًا من أشكال التطور الفكري^١.

ولا يختلف المفهوم اللغوي الأوروبي عن العربي بشكل جوهري، فيقال في العربية: قلب ثقِف؛ أي سريع التعلم والفهم^٢، ويقال: ثقِف الشيء، وهو سرعة التعلم^٣، والثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة ذرء الشيء، فيقال: ثقِفْتُ الفناء إذا أقمت عوجها^٤.

^١ Kroeber, Alfred Louis, and Clyde Kluckhohn. "Culture: A critical review of concepts and definitions". Papers. Peabody Museum of Archaeology & Ethnology, Harvard University. 1952. P.62.

^٢ الفراهيدي، الخليل بن أحمد: العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، مادة (ثقِف).

^٣ ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤، مادة (ثقِف).

^٤ ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩، مادة (ثقِف).

ومن المهمّ بمكانٍ ملاحظة أنّ المعنى اللُّغويَّ العربيَّ للثقافة يحملُ في ذاته معنى إصلاحٍ شيءٍ وتعديله، وافترض أنّ الثقافة ضدّ الاعوجاج، وبذلك تكونُ وسيلةً؛ أي إنّها تُستخدمُ وسيلةً لإدراكٍ غايةٍ أخلاقيةٍ، وهو الأمرُ ذاته في الثقافة المسيحية، إلّا أنّه في الوقتِ الحاضرِ لا يعبرُ في جوهره عن هذا الأمر، وإن كانَ العامةُ يرونَ في الثقافة أمرًا إيجابيًا محسنًا للفردِ ومجتمعِهِ، فإنّه في المفهومِ المعاصرِ ومع العلومِ الحديثةِ أصبحَ مختلفًا تمامًا، فهناك الثقافاتُ التي تحضُّ على القتلِ، وتعتبرُ ذلكَ أمرًا إيجابيًا، بل وطقسًا من الطُّقوسِ والشعائرِ الدينيّةِ كشعبِ السُّومرست الذي كان يأكلُ لحمَ البشرِ، في حين أنّ الثقافة الإسلاميّةَ على سبيلِ المثالِ تجرّمُ هذا الفعلَ، بل استخدمتهُ وسيلةً لتثيّرِ الاشمئزازِ والتقرُّرِ في نفوسِ المستغيبيينِ واللامزينِ والمتجسّسينِ، حيثُ قالَ تعالى: "وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ"^١. ومن هنا يمكننا أن نحدّدَ صفةً من أهمِّ صفاتِ المفهومِ المعاصرِ للثقافة، وهي النسبيّةُ، فما هو جيّدٌ بالنسبةِ لي، لا يُعدُّ مقبولا من وجهةِ نظرٍ أخرى في مجتمعٍ آخر، ومن الصّعبِ بمكانٍ في مثلِ هذه الحالاتِ أن تحدّدَ من الصّحيحِ، أو من الأصحِّ؛ لأنّنا هنا لا نحاكمُ مسألةً ما للوصولِ إلى الحُكمِ الصّحيحِ بل للوصولِ إلى فهمِها ومقاربةِ طرقِ تفكيرِها، فضلًا عن أنّنا لا نحاكمُ جزئيةً بسيطةً داخليةً في نظامِ التفكيرِ هذا، وإنّما نحاكمُ منظومةً كاملةً من العاداتِ والتقاليدِ والأفكارِ التي غرستها العواملُ الإيكولوجيّةُ والبيولوجيّةُ والسيكولوجيّةُ والنّيولوجيّةُ والسوسيولوجيّةُ وغيرها، ومجرّدُ إزاحةِ حجرٍ بسيطٍ في هذه المنظومةِ يُعدُّ تهديدًا مباشرًا وحقيقيًا للمنظومةِ كلّها.

إنّ "الثقافة" كلمةٌ معقّدةٌ ومتنازعٌ عليها؛ لأنّ مفهومها لا يمثّلُ كيانًا في عالمٍ كائنٍ مستقلٍّ؛ ولذلك من الأفضلِ أن نفكّرَ فيه على أنّه مفهومٌ دالٌّ متحرّكٌ يتيحُ طرقًا متميّزةً ومتباينةً للحديثِ عن النّشاطِ البشريِّ، كما أنّ التّنوُّعَ في طرقِ فهمِ الثقافة لا يمثّلُ حالاتِ الحقِّ أو الصّوابِ الموضوعيّ مقابلِ الخطأِ الموضوعيّ؛ لأنّه لا يوجدُ تعريفُ خاطئٍ للثقافةِ بمعنى سوءِ وصفِ شيءٍ، ومن الجديرِ بمكانٍ إذن أن نعلمَ أنّ مفهومَ الثقافةِ هو مفهومٌ سياسيٌّ وعرضيّ، واستكشافُ معانيها هو تتبُّعُ استخدامِها والعواقبِ

^١ القرآن الكريم: سورة الحجرات، الآية ١٢.

المرتبة على ذلك¹. وعلى الرغم من أن مصطلح "الثقافة" معقد بشكل استثنائي، إلا أنه يستدعي إلى الذهن معاني أربعة رئيسية، وهي الأعمال الفنية والفكرية، وعملية التطور الروحي والفكري، والقيم والعادات والمعتقدات والممارسات الرمزية التي يعيشها الرجال والنساء، أو يمكن أن تعني الأسلوب الكامل للحياة، من الشعر والموسيقى والرقص ونوعية الطعام المأكولة والرياضة الممارسة، والشعائر الدينية، ويمكن أن تمتد إلى أبعد من ذلك لتشمل طرق الحكم والقوانين وحتى طرق التخلص من القمامة²، بل إن ت.س. إليوت عدّ بعض الأطعمة من صميم الثقافة الإنجليزية مثل جبن وينسليديل، والملفوف المغلي والشمندر وما إلى ذلك³، ممّا جعل رايموند ويليامز يؤكد أن الصعوبة المتعلقة بفكرة الثقافة تكمن في أننا نضطرّ باستمرار إلى توسيعها حتى تصبح متطابقة إلى حدّ ما مع حياتنا العامة بأكملها⁴؛ ولذلك فهي تتكوّن من مدلولات وممارسات الرجال والنساء العاديين في المجتمع، ومن هنا نعود إلى فكرة أن الثقافة هي تجربة معيشية؛ نصوص وممارسات تشكّل في مجملها أسلوب حياة كاملاً؛ ولذلك أصرّ ويليامز أن تفهم الثقافة من خلال "تحليل جميع أشكال الدلالات ومعانيها ضمن الوسائل والظروف الفعلية لإنتاجها"⁵.

والقول إن شخصين ينتميان للثقافة نفسها، يعني أنهما يفسران العالم بالطرق ذاتها تقريباً، ويمكنهما التعبير عن أفكارهما ومشاعرهما حول العالم بطرق يفهمها كلاهما. وهكذا تعتمد الثقافة على قيام الأشخاص المنتمين إليها بإطلاق تفسيرات ذات مغزى لما يحدث حولهم، وفهم العالم بطرق متشابهة إلى حدّ كبير⁶، فالثقافة شبكات معرفية تتألف من أنماط روتينية مكتسبة من التفكير والشعور والتفاعل مع الآخرين، بالإضافة إلى مجموعة من الاعتقادات والأفكار الجوهرية حول جوانب من العالم⁷؛ ومن هذا المنطلق عدت الثقافة تقليداً معرفياً فريداً من نوعه من حيث إنَّها مشتركة (وإن كانت بشكل غير كامل) بين

¹ Barker, Chris. "The Sage Dictionary of Cultural Studies." London: SAGE Publications, 1st ed, 2004, p.44.

² Eagleton, Terry. "Culture", New Haven and London: Yale University Press, 2016, p.1.

³ Eliot, Thomas Stearns. "Notes towards the Definition of Culture". Faber & Faber, 2010, p.31.

⁴ Williams, Raymond. "Culture and Society 1780–1950". London: Chatto & Windus, 1958. p. 256.

⁵ Williams, Raymond. "Culture". London: Fontana, 1st ed, 1981, p.64-65.

⁶ Hall, Stuart, ed. Representation: "Cultural representations and signifying practices". Vol. 2. Sage, 1997, p.2.

⁷ Barth, Fredrik, et al. "An anthropology of knowledge." Current anthropology 43.1, 2002, 1.

مجموعة من الأفراد الذين غالباً ما يكونون من العرق نفسه، وتُستخدَم لتشكيل أرضية مشتركة للتواصل بين أعضاء المجتمع، وهي تنتقل أيضاً من جيل إلى آخر¹، وهو ما يؤكد بطريقة ما أنها متعلقة بالبيئة والقومية التي تنشأ فيها فتتطور مع سيورة الزمن والحاجة إلى التجديد لمواكبة العصر والحدثة، غير أنها في الوقت ذاته وإن اختلفت ظاهرياً، تبقى في جوهرها ثابتة من الصعب تغييرها أو الانقلاب عليها لأنها تكون مرتبطة بجذور اللاوعي الجمعي وتكوينه.

وتتكون الثقافة من طرقٍ نمطية للتفكير والشعور والتفاعل، يتم اكتسابها وتوريثها بشكلٍ أساسي عبر الرموز، وهي تشكل المآثر والإنجازات المميزة للمجموعات البشرية؛ ولذلك فإن جوهر الثقافة يتكون من الأفكار التقليدية (أي تلك المنتقاة والمستمدة تاريخياً) وبخاصة القيم المرتبطة بها²، ويمكننا هنا أن نضرب مثلاً لرمزية الحجر واختلاف الصورة الذهنية الحاصلة في أدمغة السامعين، فإن كان السامع بريطانياً أو إيرلندياً سيبدأ التفكير بوحدة القياس (Stone) أو الحجر، ولكنها للفلسطيني تدل على الصمود والثورة والانتفاضة والعزة والكرامة. ولا يتعلق الأمر بتعدد القوميات فقط، وإنما بتعدد التخصصات داخل القومية الواحدة أيضاً، فكلمة الحجر تذهب بعالم الآثار إلى العصر الحجري، وبالمتدين إلى العقاب واللعنة من الله أو القسوة في البشر، وبالفيلسوف إلى حجر الحكمة، وبالمهندس إلى وحدة البناء، وبالطبيب إلى أمراض الكلى. وهكذا يمكننا أن نستشف صفات أخرى للثقافة غير النسيبية، كالتطور، وهو ما يطرأ على الألفاظ والأفكار من تطور بتطور الحياة، إذ لا يعود هناك مفهوم واحد ثابت، بل تصبح معاني المفهوم الواحد متحركة متطورة في سيورة لانهائية؛ وتأسيساً على ذلك، نستنبط الصفة الثالثة وهي وجوب وجود النسق الذي يحكم السياق حتى تصبح الكلمة ذات معنى، أما إذا أطلقت مفردة فلا معنى لها لعدم وجود نسق ثقافي محدد تتفاعل عناصره فيما بينها، وهذا يُنشئ لنا مجموعة من الاعتبارات التي يجب أخذها بالحسبان حين محاكمة أي نص، وتشتمل هذه الاعتبارات على الاعتبار الديني، والاعتبار المجتمعي، والاعتبار

¹ Wyer, Robert S., Chi-yue Chiu, and Ying-yi Hong, eds. "Understanding culture: Theory, research, and application". Psychology Press, 2009, p.4.

² Lebron, Antonio. "What is culture". Merit Research Journal of Education and Review 1.6. 2013. P.126.

النَّفسيّ، والاعتبارِ الوطنيّ، والاعتبارِ السِّيَاسيّ، والاعتبارِ الفرديّ أيضًا في تلك المنظومة المجتمعيّة، وغيرها من الاعتبارات التي تساندُ النّاقِدَ في الوصولِ إلى حكمٍ دقيقٍ أو قريبٍ بما يكفي، لا للصّوابِ، وإنّما لفهمِ الحالةِ الثّقافيّةِ، وبمجرّدِ أن يفهمَ النّاقِدُ الحالةَ الثّقافيّةَ للنّصّ المقروءِ، تصبحُ مهمّةُ استكشافِ الأنساقِ الخارجيّةِ (الظّاهرة) والأنساقِ الدّاخليةِ أو البينيّةِ (المضمرة) أسهل وأقرب إلى الحقيقة.

مفهوم النّقد الثّقافيّ في ضوء الدّراسات الثّقافيّة

يُعَدُّ تعريفُ الثّقافةِ أحدَ اهتماماتِ النّقادِ الثّقافيين، وهم يرونَ أنّها تعرضُ مجموعةً واسعةً من المفاهيم والمعاني، فهي تُعنى بالممارساتِ الفكريةِ والفنيّةِ، وبخاصّةِ الأدبِ والموسيقا والرّسم والنّحتِ والمسرحِ والفلسفة والنّقدِ، كما أنّها تصفُ عمليّاتِ النّطوّرِ الفكريّ والرّوحيّ والجماليّ والأخلاقيّ، وتشيرُ أيضًا إلى طريقةِ الحياةِ المميّزة لشعبٍ ما، أو للبشريّةِ ككلّ، فضلًا عن أنّها تشيرُ إلى صقلِ الذّوقِ والحكمِ والفكرِ بما يشملُ الأخلاقَ والعاداتِ والأساطيرَ وأنماطَ الفكرِ.

إنّ مصطلحَ الدّراساتِ الثّقافيّةِ ليسَ حديثًا بمفهومهِ الحاليّ، حيثُ بدأ بشكلِهِ الحقيقيّ الذي يُعَدُّ النّقدُ الثّقافيّ امتدادًا له، عام ١٩٧١^١، عندما قام مركزُ الدّراساتِ الثّقافيّةِ المعاصرةِ في جامعةِ برمنغهامِ الإنجليزيّةِ بإصدارِ مجلّةٍ تناولتِ دراساتها الثّقافةَ الشّعبيّةَ والثّقافاتِ الفرعيّةَ، والمسائلَ الأيديولوجيّةَ، والأدبَ، والقضايا المتعلّقةَ بالجنوسةِ، والحياةَ اليوميّةَ، وغيرها من المواضيع ذات الصّلةِ، ممّا أظهرَ للنّاسِ أنّ جامعةَ برمنغهامِ تأخذُ الثّقافةَ الشّعبيّةَ على محملِ الجِدِّ، ولا تركّزُ فقط على الأدبِ النّخبويّ، أو الرّفيعِ.

وعلى الرّغمِ من أنّ تلكَ المجلّةَ لم تستمرَّ طويلًا، إلّا أنّها تسبّبت بخلقِ حالةٍ نقديّةٍ ليست للأدبِ وحده، وإنّما للتّخصّصاتِ العديدةِ، حيثُ أفادَ الأنثروبولوجيونَ، وعلماءُ النّفسِ، وغيرهم من تلكَ الحالةِ النّقديةِ، أو ما يُوصَفُ حاليًا بالنّقدِ الثّقافيّ.

¹ Connell, Kieran, and Matthew Hilton. "The working practices of Birmingham's Centre for Contemporary Cultural Studies." *Social History* 40.3 (2015): p.294.

وقد اعتادَ مثقفو أمريكا على استخدام مصطلحِ النِّقدِ الاجتماعيِّ بدلاً من النِّقدِ الثقافيِّ؛ نظرًا إلى التَّرادفِ الذي يروِّنه بين المصطلحين؛ ومن هذا المنطلقِ فإنَّ النِّقدَ الثقافيَّ يركِّزُ على المستقبلِ وفقًا لمعطياتِ الماضي وآثارِ الحاضر، ممَّا يجعلُ مهمَّةَ النَّاقدِ الأدبيِّ أكثرَ اتِّساعًا، كونَ الأدبِ يُعنى بالسلوكياتِ الأخلاقيةِ والاجتماعيةِ والعاطفيةِ، ولا تقتصرُ فعَّاليَّتُهُ على تفسيرِ الواقعِ وتحليله بناءً على تصرُّفاتِ المجتمع، بل إنَّ الأدبَ بهذا المعنى يعادلُ تفكيكَ المجتمعِ وإعادةَ تركيبه مرَّةً أخرى^١.

وإنَّ الشَّيءَ الأساسَ الذي يطمحُ إليه النَّاقدُ الثقافيُّ، هو فهمُ الأعمالِ الأدبيةِ في ذاتها كأعمالٍ فنيةٍ، وليس النِّقدَ وحده، بل استخدامَ علمِ النَّفسِ عند التَّعاملِ مع الرواياتِ أو القصائدِ، ومحاولةَ اكتشافِ ما فيها واكتشافِ ثقافةِ مؤلِّفيها وشخصياتهم، واستخدامِ التَّاريخِ وعلمِ الاجتماعِ لما قد يُخبراننا عن طريقةٍ أو فكرٍ أو "روحِ" العصرِ الذي أنتجها؛ ولذلكَ ليسَ من المستغربِ أن يشاركَ النُّقادُ النَّقَّادُونَ الاهتماماتِ والأساليبَ، ليس فقط مع علماءِ الأنثروبولوجيا والمؤرِّخينَ وعلماءِ الاجتماعِ وعلماءِ النَّفسِ، بل أيضًا مع مجموعةٍ أوسع تضمُّ الماركسيينَ والسِّيميائيينَ والنِّسويينَ والهيرمونيطيقيينَ وما بعد البنيويينَ أيضًا^٢.

ولا يميِّزُ النُّقادُ النَّقَّادُونَ عادةً بينَ الثقافةِ السَّاميةِ والثقافةِ المتدنيةِ، فالنَّاقدُ الأدبيُّ الثقافيُّ يرى أنَّ الأدبَ يعبرُ عن القيمِ الثقافيةِ القائمةِ وينقلُها إلى سياقٍ جديدٍ بحيثُ يمكنُ فهمُها وتقييمُها بشكلٍ مختلفٍ؛ ولذلكَ يبقى النِّقدُ الثقافيُّ متنبِّهاً للاتِّجاهاتِ والأساليبِ التي تظهرُ بها الأعمالُ الأدبيةُ لتعزيزِ الأيديولوجيةِ السَّائدةِ والمهيمنةِ، ومع ذلكَ يمكنُ أن يعطَّلها من خلالِ جودةِ التَّعبيراتِ الجديدةِ التي يمنحها المتلقُّونَ لها^٣؛ لأنَّ الدِّراساتِ الثقافيةَ يجبُ أن تعيَ حقيقةَ أنَّ الجماهيرَ والمتلقِّينَ يصنعونَ معانيهم الخاصةَ من الأدبِ

¹ Leitch, Vincent B. "American literary criticism from the thirties to the eighties". Columbia University Press, 1988. P.86.

² Leitch, Vincent. "Cultural Criticism, Literary Theory, Poststructuralism". Columbia University Press, 1992, p.x.

³ Nehring, Neil. "What should the politics of cultural studies be?." Lit: Literature Interpretation Theory 1.3 (1990). P. 236.

والموسيقا وغير ذلك عموماً^١، ومن هنا نجد النقد الثقافي لا يولي اهتماماً بالتسلسل الهرمي التقليدي بين الأدب السامي والأدب المتدني، وينظر إلى التجربة الأدبية كواحدة من بين العديد من الممارسات الثقافية.

وحتى ينجح الناقد الثقافي، فعليه أن يدرك أن الدراسات الثقافية ليست برنامجاً حزبياً أو اتجاهًا معينًا، وإنما تشارك في تحليل السلطة من أجل التحرر، وبناءً عليه، يشير خوسيه ديفيد سالدívar أن الدراسات الثقافية تلترزم وتضع على عاتقها قلب أي نظام اجتماعي ثقافي يستغل الناس على أساس عرقي أو طبقي أو جندي^٢؛ وبسبب أهدافه التحررية، يقدّر النقد الثقافي قوى الأدب "التخريبية" والنقدية أكثر من قدرته على تعزيز التفسيرات العرفية السائدة، ولهذا السبب فإن الدراسات الثقافية لا تتوقف عند مجرد الوصف وانتقاد القيم، ولا تقف أيضًا عند تحليل نتائج الأشكال الثقافية المختلفة، بل تساهم في هذه النتائج من خلال حث القراء على توسيع مداركهم والتحرر أثناء القراءة، بدلاً من مجرد وصف الأدب وما يتكوّن منه النص، بل يهتم بالمعاني البنيوية التي يمكن إنتاجها من النص.

وتأسيساً على ذلك، أشار باحثون إلى أن النقد الثقافي هو دراسة العمل الأدبي في سياقه، بشرط أن يكون متعدد التخصصات^٣، بحيث يفيد الناقد من رؤى الأنثروبولوجيا والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة وغيرها من المجالات؛ ولهذا، أكد رواد النقد الثقافي على مسألة أن النقاد الثقافيين لا ينتقدون من فراغ، أو من أجل النقد فقط، وإنما لديهم دائماً بعض الارتباطات ببعض الجماعات أو الأنظمة؛ كالنسوية، والماركسية، والفرويدية والأدلية واليونغية^٤ إذا جاز التعبير، فضلاً عن الأناركيين^٥ أو السيميائيين أو الأنثروبولوجيين أو علماء الاجتماع أو حتى المثليين والراديكاليين، أو مزيج مما سبق، فالنقد الثقافي دائماً ما يرنكز على بعض وجهات النظر حول الأشياء التي يعتقد الناقد أنه من خلالها يمكنه شرح النص أو

^١ What should the politics of cultural studies be?. P. 232

^٢ Saldívar, José David. "The limits of cultural studies." American Literary History 2.2 (1990). P. 252.

^٣ Johnson, Richard. "What is cultural studies anyway?, " Social text ,16, 1986, 38.

^٤ نسبة إلى عالم النفس ألفرد أدلر.

^٥ نسبة إلى عالم النفس كارل يونغ.

^٦ تعود إلى الفلسفة الأناركية أو اللاسلطوية، وهي فلسفة سياسية ترفض السلطوية في تفسير أمور العلاقات الإنسانية.

تحليله وتفسيره بشكل أفضل^١؛ ولذلك نجد هذا النوع من النقد يتفاعل ويتوسل المناهج النقدية الأخرى ويفيد منها في التعاطي مع النصوص وفهم كنهها وأسباب كتابتها والحالة الاجتماعية التي دعت إليها.

وفي هذا السياق، من المهم طرح المقاربات بين النقد الثقافي، والأدوات المنهجية الأخرى، أو المدارس النقدية إذا صح التعبير، كالسيمائية، حيث أشار المنظّر الروسي الرائد في النقد السيميائي يوري لوتمان إلى أنّه ليس هناك ما هو عرَضِيّ في النصّ الأدبيّ أو العمل الفنيّ^٢، فكلّ بنية، أو مفردة، أو جزئية صغيرة، تلعب دوراً مهماً وتفسّر جزئياً سبب تعقيد النصوص وصعوبة تفسيرها؛ ولذلك يتميّز النصّ الفنيّ بتنظيمه الداخليّ المحكم، وطابع الترميز المتعدد، أي إنّ النصّ الفنيّ منفتح على فكّ التفسير بعدّة طرق مختلفة؛ لأنّه ينقل المعلومات إلى قراء مختلفين بما يتناسب مع فهم كلّ منهم، فهو يزود القارئ بلغة يمكن من خلالها استيعاب كلّ جزء من المعلومات بطريقة أخرى عبر القراءات المتكررة. إنّهُ يتصرّف كنوع من الكائنات الحيّة التي لديها قناة تغذية راجعة للقارئ، وبالتالي فإنّها توجّهه وفقاً لتخصّصه أو معلوماته أو طرائق تحليله^٣، وهو ما يتشابه أيضاً مع الهيرومونيطيقيا، التي تُعدّ نهجاً للكشف عن المعاني داخل النصّ أو لإبراز النشاطات الثقافية التي اتخذت النصّ صورة لها، ولا يتمّ ذلك من خلال التحليلات الفكرية الموضوعية، وإنّما عن طريق الدخول في النصّ، فالنصّ كونه قائم بذاته، وبدلاً من تحليله، يسعى الهيرومونيطيقي إلى تجربته، أو كما قال جورج بوليه: "لا يمكن للنّاقد أن يفهم النشاط الثقافي أو الروحيّ في النصّ إلّا إذا عاش التجربة بتذويت ذاته في النصّ، وجعل النصّ يتغلّله ليعيش داخله"^٤ وبالتالي لا يتمّ تحليل النصوص عملياً، وإنّما يتمّ استرجاعها بدخول النّاقد إلى كنه النصّ الأدبيّ واختباره بدلاً من البقاء خارجه والنظر إليه كشيء يجب دراسته، وهذا ما يشير ضمناً إلى فكرة أنّ النصّ له أكثر من تفسير واحد

¹ Berger, Arthur Asa. "Cultural criticism: A primer of key concepts". Vol. 4. Sage Publications, 1995, p.8.

² Lotman, Jury. "The structure of the artistic text". Ann Arbor: Michigan Slavic Contributions, p.17.

³ The structure of the artistic text, p.23.

⁴ Scholes, Robert. "Structuralism in literature". New Haven, CT: Yale University Press, 1974, P.7.

صحيح، حيث يعتمد الأمر دومًا على وجهة نظر الناقد، والمجال الذي يرتبط به، والطريق التي سلكها في تحليل النص.

ومِمَّا يُحَسَّبُ لِلنَّقْدِ الثَّقَافِيِّ أَنَّ بِإِمْكَانِهِ الاستعانة بمناهج متعارضة أيضًا كالبنويّة والتفكيكيّة، فالتفكيكيون يرون - كما هو الحال لدى منظري التلقي - أنَّ القراء يساهمون في إنتاج المعاني وخلق النصوص التي يقرؤونها، وبالتالي يفقد النصّ عذريته؛ أي إمكانية أن يكون له معنى واحد حقيقي فقط، في حين يشير البنويون الذين تأثروا بنظرية سوسير اللغويّة، إلى أنَّ هناك مجموعة من التعارضات والتناقضات التي تعطي معنى للنصوص، ولكنَّ رواد التفكيك يرون أنَّ هذا النظام يميل إلى خيانة نفسه، وبالتالي فإنَّ البنية بأكملها تنهار، فالتفكيك كمنهج أو أسلوبٍ للتحليل، يعمل من خلال دخوله الحذر والحريص لكلِّ متاهة نصيّة، والبحث عن الخيط الذي سيفكّ عروة النصّ، أو الحجر الذي سيهدم المبنى بأكمله، ولا يعني ذلك أنَّ التفكيكيّة تقوم على هدم هيكل النصّ، وإنّما يأخذون ذلك للدلالة على أنَّ النصّ فكّك نفسه وحده¹، والنقد الثقافي هنا يفيد من تناقضات البنية، ليست تلك التي تطفو على السطح فقط، وإنّما التناقضات الداخليّة للبنية؛ الأنساق المضمرة مقابل الأنساق الظاهرة، ويسعى إلى تفكيكها للكشف عن السياقات المختلفة التي يحملها النصّ، فقد يبدو الأديب نسويًا، أو مهتمًا بالمرأة، وعند الدخول إلى الهياكل الداخليّة للنصّ الذي يحاول من خلاله إبراز هذه الهوية، يظهر عكس ذلك، ففي نصّ نزار "أمّ المعتز" يقول عن أمّه:

"يعرفونها في دمشق باسم "أمّ المعتز"

وبالرغم من أنَّ اسمها غيرُ مذكورٍ في الدليل السياحيّ

فهي جزءٌ من الفولكلور الشاميّ

¹ Davis, Robert & Schleifer, Ronald. "Contemporary Literary Criticism: Literary and Cultural Studies", New York: Longman, 2nd ed, p560.

وأهميتها التاريخية لا تقل عن أهمية "قصر العظم"

ومزار "محي الدين بن عربي"

وعندما تصلُ إلى دمشقَ

فلا ضرورة أن تسألَ شرطيَّ السَّيرِ عن بيتها

لأنَّ كلَّ الياسمينِ الدَّمشقيِّ يهرهُرُ فوقَ شرفتها

وكلُّ الفلِّ البلديِّ يترى في الدَّلالِ بينَ يديها

وكلُّ القططِ ذاتِ الأصلِ التُّركيِّ

تأكلُ، وتشربُ، وتدعو ضيوفها، وتعقدُ اجتماعاتها

في بيتِ أمي

نسيْتُ أن أقولَ لكم: إنَّ بيتَ أمي كانَ معقلاً للحركةِ الوطنيَّةِ

في السَّامِ عام ١٩٣٥. وفي باحةِ دارنا الفسيحةِ كانَ يلتقي قادةُ

الحركةِ الوطنيَّةِ السوريَّةِ بالجماهيرِ. ومنها كانتَ تنطلقُ المسيراتُ

والتَّظاهراتُ ضدَّ الانتدابِ الفرنسيِّ

وبعدَ كلِّ اجتماعٍ شعبيٍّ، كانتَ أمي تحصي عددَ ضحاياها من أصصِ

الزَّرع التي تحطَّمت، والشُّتول النَّادرة التي انقصفت، وأعودُ الزَّنبق التي انكسرت

وعندما كانت تذهبُ إلى أبي شاكيةً له خسارتها الفادحة، كانَ يقولُ لها رحمه الله

وهو يبتسم:

(سجّلي أزهارك في قائمة شهداء الوطن، وعوضك على الله)

وتختجل أمي من سخرية أبي المبطنة

ولكنّها في نفس الوقت تشعرُ بهزّة عنفوانٍ لأنّ بيتها صار بيت الوطنية

ولأنّ أزهارها ماتت من أجل الحرية^١

وفقاً للنقد الكلاسيكي، فإنّ هذه القصيدة واضحة والكشف عن موضوعاتها أمرٌ في غاية السهولة، فالشاعرُ يمزجُ المرأةَ بالفلّ والياسمين ممّا يشيرُ إلى عاطفتها ورقّتها وحنوّها حتّى على الأزهار. والمرأةُ أيضاً مكافحةٌ مناضلةٌ ضدّ الاستعمارِ بكلّ الطرقِ والوسائلِ الممكنة، حتّى أنّها كانت تخصّ بيتها للنوّارِ والمنتفضين ضدّ الاستعمارِ.

إنّ هذه الأنساقَ الظاهرة، تخدمُ الأديبَ الذي يعبرُ عن وجهة نظره، ولكنّها من خلالِ النقدِ النقّافي لا تخدمُ الفكرةَ التي جاءَ من أجلها، بل تؤكّدُ على اضطهادِ المرأةِ والسُّخريةِ منها والتقليلِ من شأنها، فالمرأةُ وفقاً للنصّ لا تُعرَفُ بذاتها وإنّما بالجماليّاتِ التي تحيطُ بها، فهي لا تُعرَفُ لأنّها مناضلةٌ، ولا لأنّها مفكّرةٌ، أو كاتبةٌ، وإنّما لأنّ بعضَ الياسمينِ "يهرهُرُ فوقَ شرفتها" ولأنّ بعضَ الحيواناتِ كالقططِ تسرُحُ وتمرُحُ في بيتها، بل تحتلّه، فتأكلُ وتشربُ وتدعو ضيوفها، وتعقدُ اجتماعاتها دونِ إذنّها، تماماً كما الاستعمارُ، إذ يأكلُ ويشربُ ويدعو ضيوفه من الدولِ الأخرى ويعقدُ اجتماعاته على نفقةِ الدولةِ المستعمرة، فالمرأةُ هنا شأنها شأنُ المقهورِ المحتلّ الذي لا يستطيعُ فعلَ شيءٍ ويبقى خائفاً لهذا النظامِ، وعليه، فإنّ الفضلَ لا يُنسبُ للمرأةِ هنا بقدرِ ما يُنسبُ لما يحيطُ بها من الجماليّاتِ.

^١ قباني، نزار: الأعمال الشعريّة والنثرية والسياسيّة الكاملة، المجلد الأول، ديوان كلّ عام وأنت حبيبتي، منشورات نزار قباني، ٢٠٠٥، ص ٦٠٨ وص ٦٠٩.

وفي القطعة الأخرى من النص نفسه، حاول نزار أن يشيدَ بدورِ المرأة في النضالِ ضدَّ المستعمرِ الفرنسيِّ، ولكنَّه بدلاً من ذلك جعلَ من المرأة أضحوكةً جاهلةً لا دورَ لها في شيءٍ من ذلك، فهي لا تكثرُ لاستشهادِ المناضلينَ والمقاومينَ من أجلِ حريَّةِ بلدها، وحريةِ منزلها، بل تكثرُ لأزهارها وشتولها النادرة التي انقصت، ولا تخبئ ذلك في قلبها خوفَ العارِ من قلةِ وطنيتها، بل تصرِّحُ بذلك لأبيه "ساكية" له "خسارتها الفادحة"، الأمر الذي يجعله يسخرُ منها بقوله لها أن تحتسبَ تلكَ الأزهارَ ضمنَ الشهداءِ.

وحينما حاولَ نزار أن يغلُقَ هذا البابَ السَّلبيَّ على المرأةِ بقوله:

"وتختجلُ أمي من سخريَّةِ أبي المبطنة

ولكنَّها في نفسِ الوقتِ تشعُرُ بهزَّةَ عُنفوانٍ لأنَّ بيتها صارَ بيتَ الوطنيَّةِ

ولأنَّ أزهارها ماتت من أجلِ الحريَّةِ"

نجدُه فتحَ البابَ ذاته على مصراعَيْهِ، ونكشفُ ذلكَ بالعودةِ إلى علمِ النَّفسِ ومصطلحاته، وبخاصَّةِ النَّبْرِ، وهو آليَّةٌ دفاعيَّةٌ نفسيَّةٌ يتمُّ من خلالها تبريرُ السُّلوكيَّاتِ أو المشاعرِ بطريقةٍ منطقيَّةٍ، وجعلها مقبولةً أو حتَّى مثيرةً للإعجابِ ومتفوقَةً بوسائلٍ معقولةٍ، وهي بذلكَ محاولةٌ لإنكارِ الدَّوافعِ الحقيقيَّةِ للفردِ باستخدامِ أساليبٍ منطقيَّةٍ مقبولةٍ اجتماعيًّا، مثل: لا يهمني إذا لم يتمَّ اختياري للمشاركةِ في الفريق؛ إذ لم أكن أرغبُ حقًّا في لعبِ كرةِ القدم على أيِّ حالٍ¹ وهو ما لجأتُ إليه "أمَّ المعترِّ" وفقًا لوصفِ نزار لها، حيثُ قالت بصورةٍ أو بأخرى بعدما سخرَ منها زوجها: "حسنًا، لم يعد من المهمِّ كثيرًا أنَّ زهوري قُصِّفت، فالمهمُّ أنَّ منزلي هو منزلَ الوطنيَّةِ، وأنَّ أزهارِي ماتت من أجلِ الحريَّةِ" وهكذا نرى الشَّاعرَ يؤكِّدُ على تبعيَّةِ المرأةِ حتَّى في معتقداتها، وهيمنة الذُّكوريَّةِ عليها إلى درجةٍ إقناعها بما هي ليست مقتتعةً به، وغسلِ دماغها بالوطنيَّةِ والجمعيَّةِ، بعيدًا عن المشاعرِ الفرديَّةِ التي كانت تريدها وتحتاجُها.

¹ Strickland, Bonnie. "The Gale Encyclopedia of Psychology", Farmington Hills: Gale Group, 2001, p.170.

وحتى عندما أرادَ الشاعرُ أن يحتفي بحريّة المرأة في قوله: " ولأنّ أزهارها ماتت من أجل الحرية" لم يصب إلى حدّ كبير، فالأزهارُ هي التي اعتقدت الحرية، وهي التي ماتت من أجلها، أمّا بالنسبة "لأمّ المعتز" فما زالت تتحسّر عليها، وبما أنّ الزمنَ لن يعودَ بحالٍ من الأحوال، فإنّها تبرّر لنفسها بهذه الكذبة على نفسها، والحقيقة من وجهة نظر المجتمع.

ونحنُ هنا لا نلومُ الشاعرَ ولا نعدّه عنصرًا مضادًا للمرأة، فهو في نهاية المطاف ابنُ بيئته الشرقيّة، وهدفُ النقدِ الثقافيّ هو الاستعانةُ بالمناهجِ المختلفةِ من أجلِ الكشفِ والتحرّي عن الأنساقِ الثقافيّة المضمرة في اللاشعور الجمعيّ الذي يصعبُ على الأديب أن يتصلّ منه بحكم تربيته الطويلة فيه، ونشرّب معتقداته والذوبان في قيمه، والكشف أيضًا عن البيئة الاجتماعية التي أدت إلى هذه الحالة.

وهكذا نجدُ أنفسنا كلّما أردنا تحليلَ نصٍّ أدبيٍّ وفقًا للمنهج الثقافيّ، استخدمنا أدواتٍ تعيّننا لا على كشفِجماليّاتِ النصّ وتغنيهِ بالمثل العليا كالتحرّر والنسوية، وإنّما على استكشافِ كنه النصّ، وما يقبع خلفه من أنساقٍ مضمرةٍ قد تعبّر عن رأيٍ مختلفٍ تمامًا وفقًا للأساليبِ والمناهجِ المستخدمةِ في التحليل، كما استخدمنا النظريةَ النسويةَ، والتحليلَ النفسيّ الذي يقومُ بشكلٍ أساسيٍّ على أفكارِ فرويد، وبشكلٍ جوهريٍّ على الفكرةِ الفرويديةِ القائلةِ إنّ النفسَ تحوي عددًا من المستوياتِ أو أنظمة الإدراكِ المختلفة، وهي الوعي واللاوعي، أو ما يُعرفُ بفرضية فرويد الطبوغرافية، التي تضمُّ الوعي وتضمُّ الباطنَ الذي يشملُ الأفكارَ والذكرياتِ والعناصرَ الذهنيّة التي على الرّغم من كونها في الباطنِ حاليًا إلّا أنّه يمكنُ إدخالها إلى الوعي بسهولة، وتضمُّ أيضًا اللاوعي الذي مُنعت عناصره من الوصولِ إلى الوعي بسببِ بعضِ القوى النفسيّة أو الميكانيزماتِ والآلياتِ الدفاعيّة كالقمع والتبرير وغيرها¹، وتتمثّل أهميّة اللاوعي في دراسة النصوص الأدبيّة، أنّ العديدَ من العناصرِ المهمّة في تلك النصوص ترتبطُ بشكلٍ أو بآخر بعملياتِ اللاوعي لدى الأديب؛ ولفهمِ قوّة النصوص، يجبُ أن نكونَ على دراية بالطريقة التي ترتبطُ بها بعناصر في اللاوعي

¹ Hinsie, Leland & Campbell, Robert. "Psychiatric dictionary", New York: Oxford University Press, 4th ed, p.585.

لدينا، وهو ما يفسرُ بطريقةٍ ما سببَ صعوبةِ تفسيرِ النصوصِ بشكلٍ عامٍّ، ويفسرُ جزئيًّا أيضًا سببَ عدم قيامنا بسؤالِ المؤلفين عمّا تعنيه أعمالهم؛ وإذا سئلوا قالوا إنّ الأمرَ للنقادِ.

ولا تقتصرُ هذه الأدواتُ النَّفسيةُ على الوعي واللاوعي، وإنّما ترتبطُ أيضًا بعملياتٍ نفسيةٍ أخرى أو بتقسيماتٍ نفسيةٍ أوردَها روادُ علمِ النَّفسِ والتَّحليلِ النَّفسيِّ، كالفرضيةِ الفرويديةِ البنيويةِ التي تشملُ الهُوَ، والأنا، والأنا العليا، بالإضافةِ إلى عقدةِ أوديب، والتَّكثيفِ "Condensatio" والنَّرجسيةِ، والأسطورةِ، وغيرها، وتلك الأخيرةُ في سياقِ النَّقدِ النَّقائِيِّ، تعملُ على ربطِ الأشخاصِ بثقافتهم، وتفسيرِ الظواهرِ الطَّبيعيةِ والخرافةِ للطَّبيعةِ، وبحسبِ تعبيرِ شورر "هي أداةُ نكافحُ بوساطتها باستمرارٍ لجعلِ تجربتنا مفهومةً لأنفسنا، وهي صورةٌ كبيرةٌ مهيمنةٌ تعطي معنىً فلسفيًّا لحقائقِ الحياةِ وأحداثها العاديةِ"¹ كما يرى صديقُ فرويد، عالمُ النَّفسِ التَّحليليِّ، كارل يونغ، أنّ الأساطيرَ تعبيراتٌ مباشرةٌ عن اللاوعي الجمعيِّ، وهو ما يفسرُ وجودَ الأساطيرِ بشكلٍ متشابهٍ في مختلفِ الثقافاتِ، الأمرُ الذي يجعلها عالميةً، وهو ما يبرزُ وجودَها والاتِّكاءَ عليها أيضًا في كثيرٍ من الأحيانِ في النَّقدِ النَّقائِيِّ، لصلاتها أيضًا بعقدةِ أوديب من النَّاحيةِ النَّفسيةِ، وبالمفهومِ الماركسيِّ للقلَّةِ المخلصين من النَّاحيةِ السِّياسيةِ.

خلاصةُ الأمرِ، إنّ النَّقدَ النَّقائِيَّ يتميَّزُ عن النَّقدِ التَّقليديِّ أنّه يهتمُّ بالتَّشكيلاتِ والظواهرِ والأدبيّاتِ الجماليّةِ وغيرِ الجماليّةِ، كما أنّه يستخدمُ مجالاتٍ عديدةً ومدارسَ مختلفةً أثناءَ تحليلِ النَّصِّ وسبرِ أغواره. والقولُ إنّ النَّقدَ النَّقائِيَّ ينخرطُ في نقدِ الثقافةِ، يعني أنّ يقيّمُ ويفحصُ بانتظامٍ القيمَ غيرَ المعترفِ بها، أو غيرِ الملحوظةِ في كثيرٍ من الأحيانِ، والمدمجةِ في أنظمةِ العقلِ، والتَّعاملِ معها كنصوصٍ مرتبطةٍ بأرشفاتٍ ثقافيّةٍ أخرى تمكّنُ النّاقِدَ من توسيعِ مداركِ تحليله².

والنَّقدُ النَّقائِيُّ أيضًا كما ذهبَ الغدّامي يقومُ على الالتفاتِ إلى ما هو غيرَ رسميٍّ، ولكنّه في الوقتِ ذاته مؤثّرٌ أكثر من الأدبِ الرسميِّ كالشَّعرِ، فالالتزامُ المبدئيُّ بالأدبِ الرَّسميِّ والجماليّاتِ التي تكتنفه "حرم النَّقدِ

¹ Henry, Murray. "Myth and Mythmaking". Boston: Beacon, 1968, p.355.

² Leitch: "Cultural Criticism, Literary Theory, Poststructuralism," Ibid, p.3.

من القدرة على معرفة عيوب الخطاب، ومن ملاحظة الأعياب المؤسسة الثقافية وحيلها في خلق حالة من التّدجين والثّرويض العقليّ والدّوقيّ لدى مستهلكي النّقافة وما يُسمّى بالفنون الرّاقية والأدب الرّفيع^١ وبالتالي إنّ الهدف الأبرز من النّقد النّقافيّ هو السّباحة المتعمّقة داخل النصّ لإبراز ما أخفاه الأديب وأعيّا أو غير واع بفعل اللّاشعور، وما يكتنف ذلك الخفاء من أنساق مضمرة مختبئة تحت أقنعة الخطاب الجماليّ.

أسس النّقد النّقافيّ ومرتكزاته في مشروع الغدّامي

لا بدّ من وجود أسس ومرتكزات لأيّ وجهة نظر، أو مجال، أو نظريّة نقدية، يمكن للنّاقِد أن يتكّى عليها أثناء نقده. وقد عدّدت الدّراسات الوافرة في هذا الموضوع مجموعة من هذه الأسس والمرتكزات والتي في العموم اتّكأت على مقالات الغدّامي وكتبه، التي ذكر فيها أسس النّقد النّقافيّ ومرتكزاته، وهي: العنصر النّسقيّ، والدّلالة النّسقيّة، والنّوريّة النّقافيّة، والنّسق المزدوج، والمؤلّف المزدوج، والجملة النّقافيّة، والمجاز الكليّ^٢.

وبيان هذه الأسس فيما يلي:

- أ. العنصر النّسقيّ: هو العنصر السّابغ الذي أضافه الغدّاميّ إلى عناصر الرّسالة السّنة في نموذج جاكسون، وهي: المرسل والمرسل إليه والرّسالة وأداة الاتّصال والسّيّاق والشيفرة. وهذه العناصر هي التي أسعفت النّقد الأدبيّ، أمّا النّقد النّقافيّ فإنّه يحتاجُ عنصرًا سابعًا، وهو العنصر النّسقيّ^٣.
- ب. الدّلالة النّسقيّة: هي ابنة العنصر النّسقيّ، والتي استعاض بها الغدّامي عن الدّلالات اللّغويّة التي لم تعد كافية لكشف ما تخبئه اللّغة من مخزون دلاليّ، ويعرّفها بأنّها قيمة نحويّة ونصوصيّة مخبوءة في

^١ الغدّامي، عبد الله: النقد الثقافي؛ قراءة في الأنساق النّقافيّة العربيّة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٥، ص١٥.

^٢ الغدّامي، عبد الله واصطيف، عبد النبي: نقد ثقافي أم نقد أدبي، إعلان موت النقد الأدبي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤، ص٢٤ وص٢٥.

^٣ نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص٢٦.

المضمّر النصّي في الخطاب اللّغويّ، وعلى الرّغم من كون الدّالّتين الصّريحة والضّمنيّة ضمن حدود الوعي المباشر، إلّا أنّ الدّلالة النّسقيّة ليست في الوعي، وتحتاج إلى أدوات نقدية مدقّقة كي تكتشفها^١.

ت. الجملة النّقاقيّة: هي الجملة النّاشئة عن كشف الدّلالة النّسقيّة، مقابل الجمل النّحويّة ذات المدلول التّداوليّ، والجمل الأدبيّة ذات المدلول الضّمّنيّ والبلاغيّ. وهذه الجملة النّقاقيّة تميّز بتعبيرها المكثّف، فيمكن أن تكون الجملة الواحدة مقابل ألف جملة نحويّة.

ث. المجاز الكليّ: وهو الجانب الذي يمثّل قناعاً تتفكّع به اللّغة لتمرّر أنساقها النّقاقيّة دون وعي منّا؛ حتّى لنصاب بالعمى النّقاقيّ^٢.

ج. التّوريّة النّقاقيّة: تخرج التّوريّة النّقاقيّة من مجال التّوريّة البلاغة، فهي تتعلّق بكون النصّ يحمل نسقين لا معنيين، أحدهما واعٍ، والآخر مضمّر^٣.

ح. النّسق المضمّر: هو مفهوم مركزيّ في النّقد النّقاقيّ، ويعني كلّ دلالة نسقيّة مختبئة تحت غطاء الجماليّ ومتوسّلة بهذا الغطاء لتعرس ما هو غير جماليّ في النّقاقيّة. وهذه الأنساق المضمّرة تتسبّب في التّأسيس لنمط ثقافيّ مهيمٍ ظلّت النّقاقيّة العربيّة تعاني منه، ولم يُنقّد هذا النّسق؛ لتوسّله بالجماليّ الأدبيّ، مما جعل عين النّقد الأدبيّ تعمى عن كشفه، ومن شروط وقوعه وجود نسقين يحدثان معاً أو فيما هو في حكم النصّ الواحد، وأن يكون أحد النّسقين مضمّراً والآخر علنيّاً، ويكون المضمّر نقيضاً وناسخاً للمعلن، ولو حدث وصار المضمّر غير مناقض للعلنيّ، فسيخرج النصّ عن مجال النّقد النّقاقيّ، كما لا بدّ أن يكون النصّ موضوع الفحص نصّاً جماليّاً، ولا بدّ أن يكون أيضاً ذا قبول جماهيريّ، ويحظى بمقروئيّة عريضة^٤.

^١ يُنظر: المرجع نفسه ص ٢٧.

^٢ المرجع نفسه، ص ٢٩.

^٣ المرجع نفسه، ص ٢٩.

^٤ نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص ٣٠-٣٣.

خ. المؤلف المزدوج: يرى الغدّامي أنّ للنصّ مؤلّفين اثنين، الأوّل مُعلن، وهو الأديب بما هو، والثاني هو الثقافة التي تقوم بغرس أنساقها من تحت نظر المؤلف، فيكون المؤلف في حالة إبداع كامل الإبداعية حسب شرط الجميل الإبداعي، غير أنّنا سنجد من تحت هذه الإبداعية وفي مضمّن النصّ نسفاً كاملاً وفاعلاً ليس في وعي صاحب النصّ، ولا يمكن لغير النّقد الثقافيّ بأدواته أن تكشف هذا الأمر^١.

تعليقاً على تلك الأسس: إنّ جلّ هذه العناصر التي أوردّها الغدّامي يشوبها قصور واضح، وذكّر أمور لا علاقة لها بالنّقد الثقافيّ، وقد أطلق عليها مسميات لا تخدم النّاقّد الثقافيّ، وإنّما يمكنها أن تفيّد ناقداً آخر، وعلى الرّغم من محاولاته المستميتة في الخروج عن النّقد الأدبيّ، إلّا أنّه بقي في بوتقة واحدة وإياه، مستخدماً مصطلحاته، غير قادرٍ على التّصّل منها.

وقد حاول الغدّامي مناقشة عبارة "الجامع الأمويّ" التي طرحها عبد النّبي اصطيّف، فانزلق معه بعيداً عن النّقد تماماً، ويؤخّذ على ذلك وعلى مشروعه النّقديّ ما يلي:

١. إنّ عبارة "الجامع الأمويّ" ليس هناك أيّ سياقٍ يحكمها، فهي عبارة مفردة، ومجرّد الإشارة هي أقصى معنى يمكن أن تحمله، على اعتبار حذف "هذا"، وإلاّ سنبقى نتساءل، ما شأن الجامع الأمويّ؟ وبالتالي إنّ الخوض في حديث لا سياق له، يعود إلى الخلفيّة الفكرية لدى كلّ شخص، وفي النّهاية فإنّ الأمر لا يخرج عن تصوّر ذهنيّ إيجابيٍّ أو سلبيٍّ ليس أكثر، وليس نقداً بمعنى النّقد، أو بمعنى الثقافة.

٢. أطلق الغدّامي على "الجامع الأمويّ" اسم "الجملة الثقافيّة"، وحاجّ الجماليّات الهندسيّة التي أوردّها اصطيّف وردّ عليها بأنّه كون "الجامع الأمويّ" علامة ثقافيّة وبالتالي "جملة ثقافيّة" فإنّها تكشف عن إشكالٍ ثقافيّ، فهي أوّلاً تحمل دلالة المسمى بنسبة المكان إلى الحقبة الأمويّة، وهي حقبة تمثّل قيمة ثقافيّة عربيّة وإسلاميّة، وتدلّ على خطابٍ يمثّل حالة تحوّل جذريٍّ في تكوين مفهوم الأمّة، فهو مسجد

^١ المرجع نفسه، ص ٣٣-٣٤.

يُنسَبُ إلى عشيرةٍ، وهذه العشيرةُ تحنُّلٌ موقعاً جدلياً في نفوس المسلمين بين سنّةٍ وشيعَةٍ، وبين عهدٍ راشدٍ وملكٍ عضوضٍ، وبين ثقافةٍ قَبِيلَةٍ من جهةٍ، وثقافةٍ وحيٍّ من جهةٍ، واستدلَّ على وجودِ النَّسَقِ المضمرِ بالدَّلَالَةِ الخَفِيَّةِ بما تحمله من تناقضٍ بين المعنى الواعي والمضمرِ النسقي، فالسُّؤالُ لن يكونَ عمّا هو موجودٌ في "الجملةِ الثَّقَافِيَّةِ" وإنما سيكونَ عمّا هو غير موجودٍ، وهو أُمويّةُ المكانِ على الرّغمِ من أُمويّةِ الاسمِ، والمفقودُ هنا هو التّعارضُ بين المسمّى الأُمويّ وعدمِ أُمويّةِ المكانِ، ممّا يعني أنّه مضمرٌ ثقافيٌّ ينقضُ مسمّاه، وينسخُ المعلنَ عنه^١، ولا أدري في الحقيقةِ ما علاقةُ النّقدِ الثّقافيِّ بذلكَ الكلامِ كلّهُ، وبخاصّةٍ أنّ الغدّامي افترضَ مُسلّماً أنّ كلّ قارئٍ لتلكَ التي سمّاها "الجملةُ الثّقافيّةُ" أو "الجامعِ الأُمويِّ" يدركُ التّاريخَ الإسلاميَّ، والخلافاتِ التي وقعت في الجملِ وصِفَتين، والخلافاتِ التي ما زالت تدورُ بينَ المسلمين سنّةً وشيعَةً حولَ هذا الأمرِ، وفي الحقيقةِ إنّ جُلَّ المسلمين لا يعرفونَ سببَ الخلافِ الرّئيسِ بين الفئتين، فإذا ما حضرَ سائحٌ إلى دمشق، وقرأ: "The Umayyad Mosque" ما الذي سيديره بكلِّ ما قاله الغدّامي؟ وما الدّافعُ الذي سيجعله ينظرُ إلى أيِّ سياقٍ تاريخيٍّ؟! فما يهّمهُ حتّماً لا يتعدّى العمارةَ والهندسةَ، ولو شرحتَ له وأسهبْتَ حولَ ما قاله الغدّامي، فلن يكثرَ على الإطلاقِ، لأنّ ذلكَ لا يخصُّهُ في الأساسِ، تماماً كما لا يعنيني إذا كانَ القتالُ نابليون يهتَمُ بمتحفِ اللوفرِ ويعملُ على تعزيزِ مكانتِهِ، فإنَّ مكانةَ المتحفِ لا تتدنى قيدَ أنملةٍ، وكذلك الأمرُ فيما يتعلّقُ بالجامعِ الأُمويِّ، فمهما كثرَ الكلامُ وزادَ يبقى هذا المسجدُ لله، وما هي إلّا تسميةٌ أُطلِقَتْ عليه، وهذه التّسميةُ لا تفيّدُ غرضَه من قريبٍ أو بعيدٍ، ومن هنا يؤخّذُ على منهجِ الغدّاميّ أوّلاً أنّه يسعى بهِ إلى جعلهِ إقليمياً محصوراً في فَنَةٍ معيّنةٍ، فيصبحُ لكلِّ أُمَّةٍ منهجٌ، حسبما تعرفُ وتعي من تاريخها، وكانَ من الأجدرِ أن يُنظرَ إلى الموضوعِ بطريقةٍ أشملٍ، لا يختلفُ عليها اثنانِ حينَ نبرزُ النَّسَقَ المضمرَ، وإذا استحضرنّا مثالَ نزار قبّاني الذي طرحتهُ في هذه الدّراسةِ، وقمنا بترجمتهِ إلى أيِّ لغةٍ عالميّةٍ، فلن يختلفَ عليه اثنانِ، غربيٌّ وشرقيٌّ، في أنّه يضطهدُ المرأةَ؛ وذلكَ لأنّ موضوعَ

^١ نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص ١٥٩-١٦١.

النسوية موضوع كوني، وليس إقليمياً يهّم فئة بسيطة جداً من الناس، بل من العرب أنفسهم. ناهيك عن أنّ النّقد بهذا الشّكل يفقد قيمته، ويجعل من كلّ مارّ طريق ناقداً فقط لكونه يعرف معلومة أم معلومتين في التاريخ.

٣. يرى الغدّامي أنّ مصطلح "التّورية" يعاني من مثل ما تعاني منه المنظومة المصطلحيّة البلاغيّة، من حيث إنّها تُعنى بالظواهر التعبيريّة المقصودة فعلياً في صناعة الخطاب وفي تأويله، وأشار إلى أنّ هناك خللاً في المفهوم التقليديّ للتّورية، وهو أنّه يشير صراحةً إلى أنّ المقصود هو المعنى البعيد، وهو بهذا يُخضع العمليّة للقصد، أي للوعي، ويحوّلها بالتّالي إلى لعبة جماليّة، وهذا ما ورط البلاغة في الجماليّ من وجهة نظره، أمّا في مشروعه النّقديّ، فإنّه يستخدم مصطلح "التّورية الثقافيّة" ليدلّ على حال الخطاب إذ ينطوي على بعدين، أحدهما مضمّر ولا شعوريّ، ليس في وعي المؤلّف، ولا في وعي القارئ، فهو مضمّر نسقيّ ثقافيّ لم يكنّه كاتب فرد، ولكنّه وجد عبر عمليّات من التّراكم والتّواتر حتّى صار عنصراً نسقيّاً، فالنّورية الثقافيّة إذن تعني حدوث ازدواج دلاليّ أحد طرفيه عميق ومضمّر، وهو أكثر فاعليّة وتأثيراً من ذلك الواعي^١.

إنّ ما أورده الغدّامي لا علاقة له ببعضه البعض، فالنّورية أسلوب بلاغيّ استعمله فصحاء العرب، ولم يكونوا يدرون أنّ اسمه تورية، وحين جاء البلاغيّون، وضعوا لهذه الظّاهرة اسماً، وهذا كلّ ما في الأمر، فما علاقة هذا المفهوم البلاغيّ برجعيّة النّقد؟ وكيف صنع خللاً في صناعة الخطاب؟ ولماذا يُعدّ عيباً إذا ما كان المعنى البعيد مقصوداً، فبالمنطق نفسه، يمكننا أن نقول: إنّ المعنى العميق غير المقصود الذي يريده الغدّامي عيب أيضاً! ولا تكون عبارتنا أيّ معنى!

إنّ مفهوم "التّورية" البلاغيّ مفهوم قائم بذاته، ويعمد الأسلوبيون إليه عند تحليل نصّ أدبيّ، فهو جزء من ضروريّات النّقد لديهم كما هو الطّباق والمقابلة وغير ذلك من الأساليب البلاغيّة، وعلى أيّ

^١ النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافيّة العربيّة، مرجع سابق، ص ٦٩-٧١.

مشروع نقديّ أن يحترم المناهج النقديّة كلّها وإن اختلفَ معها؛ فمناهجُ النّقدِ أدواتٌ، ما يصلحُ لروايةٍ قد لا يصلحُ بالطريقة ذاتها لروايةٍ أخرى، ومن هنا تأتي ضرورةُ تعدّدِ المناهجِ النقديّةِ.

ولا أدري في الحقيقة كيف أدّت الثّوريّةُ بمفهومها الحاليّ إلى خلق إشكاليّاتٍ امتعضَ منها الغدّاميّ، فما للبلاغةِ للبلاغة، وما لمشروعِ النّقدِ يبقى لمشروعِ النّقدِ، فلا علاقةٌ لأحدهما بالآخر، أم يريدُ الغدّاميّ منا أن نتوقّفَ عن استعمالِ لفظة "الثّوريّة" للتّعبيرِ عن تلك الظّاهرة؟ ولو كانَ لفظها لا يؤدّي مراده بالشكلِ السّليم، لما أبقي الغدّاميّ عليه مضيفاً "الثّقافيّة" وكأنّ كلمة "الثّقافيّة" أضفت على المصطلح مهابةً واحتراماً ونقّداً لم يكونا ليفعا دونها. وربّما كانَ من الأولى أن يختارَ لمشروعه اسماً مغايراً تماماً عن الثّوريّة، إلّا إذا أرادَ أن يكونَ الصّراعُ صراعَ مسمّيّاتٍ ليس أكثر.

وربّما لن نجدَ فرقاً واضحاً وجليّاً بينَ مفهوم "المجاز الكليّ" و"الثّوريّة الثّقافيّة" و"النّسق المضمّر" فالمفاهيمُ الثلاثةُ تعبّرُ عن معنى واحدٍ في الغالب، وهو النّسقُ المضمّر، أو المعنى "العميق" الذي يتواجد في اللاّشعور، وعلى النّاقِدِ الثّقافيّ أن يبرّره.

٤. وضعَ الغدّاميّ شروطاً أربعةً صارمةً لتحديدِ النّسقِ المضمّر، وقد ذكرناها آنفاً، وهي وجود نسقين يحدثان معاً في نصّ واحدٍ أو "جملة ثقافيّة" واحدة، وأن يكون أحدهما مضمّراً والآخر علنيّاً بشرط أن يكون المضمّر نقيضاً وناسخاً للمعلن. وأكّد أيضاً أنّ لا بدّ أن يكونَ النصّ موضوعَ الفحصِ نصّاً جماليّاً؛ لأنّ الثّقافة تتوسّلُ الجماليّ لتمريرِ أنساقها، كما لا بدّ أن يكونَ النصّ "الجملة الثّقافيّة" ذا قبولٍ جماهيريٍّ ويحظى بمقروئيّةٍ "عريضة".

ومن العجيبِ بمكانِ أنّ الغدّاميّ الذي كانَ يتغنّى بأهميّةِ الفلسفةِ ويعيب على محتقريها حتّى أصبحت عبارة "لا تتفلسف" سبّةً يوصمُ بها، نجدُ أنّ مبادئ الفلسفةِ وأساسياتها تغيبُ عنه مطلقاً، فالنّقيضُ يعني عدمَ الوجودِ في علم المنطق، أي إنّ اللّونَ الأبيضَ ليسَ نقيضاً للّونِ الأسود، وإنّما ضده، والمتناقضاتُ هي العدمُ بمعنى إنّ نقيضَ "أسود" هو غير الأسود، بحيثُ لا يمكنُ أن يرتفع الوصفانِ عن شيءٍ ما، إذ لا يمكنُ أن يكونَ شيءٌ أسودَ وليسَ أسودَ في الوقتِ ذاته، ولا يمكنُ أن ننزعَ

الصّفتين عن شيءٍ ما، ففي النّهاية يجب أن يكون هناك وصفٌ لونيّ، إمّا أن يكون الشّيء أسوداً، أو يكون غير أسود، وكذلك نقيض الجماليّ ليس القبيح، وإنّما غير الجميل، وبين الأمرين بون شاسع. فلا يمكننا أن نقول إنّ تناقضاً بين الجماعيّ في مقابل الفرديّ، وبين المطلق في مقابل التّاريخي، كما فعل عند تحليله "الجامع الأمويّ"^١ ولو اكتفى بوصفها بالتّعارضات النّسفيّة لكان أخفّ وطأة. وبالتّالي إنّ عبارته "بشرط أن يكون المضمّر نقيضاً وناسخاً للمعلن" عبارة خاطئة من ناحية منطقيّة أوّلاً، وبخاصّة إذا استدعينا مثاله عن الجامع الأمويّ، فهو من حيثيّة جماليّه، جميل، وهندسته المعماريّة باذخة الجمال، والغدّاميّ ذاته لا يختلف على ذلك، وكون هذا الجامع يرتبط بتاريخ معيّن ودولة معيّنة مضطّردة لشعبها، لا يعني على الإطلاق أنّ في الأمر تناقضاً، كما ليس من الضّروري البتّة أن ينسخ المضمّر العلنيّ، فالحوادث التّاريخيّة لا تنسخ ولا تلغي جماليّة الجامع الأمويّ، وهنا نجد الغدّاميّ يتناقض مع نفسه.

وممّا نلاحظه أيضاً، تكرار كلمة "جماليّ" في سياق أنّ مشروع النّقْد الثّقافيّ يهدف إلى إبراز القبيح أيضاً، وليس فقط التّسليم بالجماليّ. وهنا يلحّ علينا السّؤال: ما هي المعايير التي اتّكأ عليها الغدّاميّ ليصف شيئاً ما بالجمال وفقاً للمعايير البلاغيّة؟ وبخاصّة أنّ قيمة الجمال الظّاهريّ نسبيّة، فما يراه قارئٌ جماليّاً، يراه آخر قبيحاً للغاية، وإذا لم نستطع تحديد المعيار الجماليّ الذي ارتكز عليه الغدّاميّ، فكيف نستطيع النّقْد عبر مشروعه؟

ثمّ تحدّث الغدّاميّ عن شرط آخر لإمكانيّة تحقيق النّسق المضمّر، وهو القبول الجماهيريّ، وهذا ما لا يمكن استساغته، بحال من الأحوال، إذ على النّقْد أن يكون جاهزاً للنّظر في أيّ نصّ أدبيّ، سواء أكان هذا النّصّ قد قرئ من الجماهير العريضة، أم لم يُقرأ، وهل يُعقل أن يكون النّقْد الثّقافيّ غير قابلٍ للتّطبيق اليوم، ومستعدّاً بكامل أدواته في الغد بعد انتشار النّصّ الأدبيّ؟!

^١ يُنظر: نقد ثقافي أم نقد أدبي، مرجع سابق، ص ١٦٣.

٥. إذا نظرنا إلى تطبيق النقد الذي تحدّث عنه الغدّامي من خلاله نفسه، سنجدّه أبعد ما يكون عن النقد الثقافي، حيث وضع في كتابه "النقد الثقافي" عنوان "نسق الاستفحال" وطبّق نقده على نزار قبّاني، وإذا تحرّينا الدقّة، فإنّه ليس نقداً ثقافياً، وإنّما هو نقد فئويّ، أي إنّ "الاستفحال" ليس نسقاً بقدر ما هو فئة تضم مجموعة من أعمال نزار قبّاني، فأين النقد الثقافي في قوله: "يقول نزار: ماذا نقول للشاعر، هذا الرجل العظيم الذي يحمل بين رثتيه قلب الله، ويضطرب على أصابعه الجحيم، وكيف يعتذر لهذا الإنسان الإله الذي تداعب أشواقه النجوم" ويعلّق على ذلك قائلاً مباشرة: "وهو قول ينطوي على غلو صارخ وتفحيل مبكر"^١ ولا أدري في الحقيقة ما معنى الاستفحال، وما علاقة الغلو بالنقد الثقافي، ثم يقول: "وبما أنّ نزار فحل يرث أسلافه من الفحول، فإنّه سيضع نفسه في موضع المتعالي، وموضع الغلو الفاحش، أليس يقول إنّ الشاعر هو الإنسان/الإله، وأنّه يحمل بين رثتيه قلب الله، وأنّ على الناقد أن يقف موقف المتعبد أمام مبدعات الفحل الأسطوري؟! بما أنّه يحمل هذا الموروث الفحوليّ بكامل نسقيّته فإنّه حتماً سيتمثّل هذه الفحولة شعرياً، وما هو ينصب نفسه مانحاً عبيده القراء والقارئات لجنّات هي جنّاته، ولنيران هي نيرانه"^٢ ثم يدرج قصيدة نزار "إنّي خيرتك فاختراري" ويكمل تهجّمه عليه، متخذاً النقد ظاهرياً، والدّين مطيّةً بشكل مضمّر! فيحاول أن يستدرّ عاطفة القراء الدّينيّة حتّى لا يجرؤ أحدٌ على الاعتراض. ثمّ يكمل مسلسل الإفداع والإهانات بحقّ الشاعر، وليس هذا من النقد في شيء على الإطلاق، وإنّما هي آراء له يطرحها، ليس أكثر، بدليل أنّه لم يرتكز على أيّ علم، ورغم حديثه عن الأنا والأنانيّة لدى نزار، إلّا أنّه لم يستخدم مصطلحاً نفسياً واحداً يدعّم به كلامه، وإنّما طرح رأيه بطريقة مهينة شائنة بحقّ الشاعر، وكأنّ له الحقّ في إطلاق الحكم على الشاعر إذا كان مخطئاً أو مصيباً، ومنذ متى كان النقد الثقافي يسعى إلى إطلاق الأحكام لا إلى كشف الأنساق المضمرة وفق أسسٍ علميّة قويمّة راجحة، ولغة أكاديميّة غير شعبيّة أو ساخرة؟! وفعل الأمر ذاته تقريباً مع الشاعر

^١ النقد الثقافي؛ قراءة في الأنساق الثقافية، مرجع سابق، ص ٢٤٩.

^٢ المرجع نفسه، ص ٢٥٠.

أدونيس، ثم راح يَنْهَمُهُ أَنَّ الجَمَلَ التي قالها ليست من مَبْتكَراتِهِ، وإنَّما هي جَمْلٌ مَكْرَرَةٌ لشُعراء سبقوا أدونيس^١.

وخلاصة الأمر، إِنَّ مشروعَ الغَدَامِي لا صلة له بالنَّقْدِ الثَّقَافِيِّ الحقيقي، وإنَّما هو وضعُ مصطلحاتٍ لا قيمة لها، كالمجاز الكلي والتَّورِيَّةُ الثَّقَافِيَّةُ وما إلى ذلك، والوقوع في أخطاءٍ وتناقضاتٍ وتعارضاتٍ عندَ الحديثِ والشرحِ عن النَّسَقِ المضمَر، ويمكننا أن نعدَّ مشروعَ الغَدَامِي مشروعًا ساخرًا يعطي الحقَّ للجميع أن ينتقدَ، إذ لا يزيدُ على إبداءِ الرَّأي، واستغلالِ المواضيعِ الحسَّاسةِ كالدينِ لإقناعِ الآخرِ بخطأِ الشَّاعر، وليست مهمَّةُ النَّاقِدِ في الحقيقةِ إظهارَ خطأِ الشَّاعر، فكيف بالنَّاقدِ الثَّقَافِيِّ إذن؟

أسسُ النَّقْدِ الثَّقَافِيِّ ومرتكزاته

برأيي إِنَّ النَّقْدَ الثَّقَافِيَّ يقومُ على الأسسِ والمرتكزاتِ الآتية:

السِّيَاق: وهو أساسٌ ومرتكزٌ للعديد من الدِّراساتِ النَّقْدِيَّةِ الأخرى، ولا يقعُ حصرًا على النَّقْدِ الثَّقَافِيِّ. وأعني بالسِّيَاقِ الظُّروفَ التي تشكُّلُ بمجملِها الإعدادَ لحدثٍ أو فكرةٍ، أو هو الخلفيَّةُ أو البيئَةُ أو الإطارُ أو محيطُ الأحداثِ والوقائعِ التي تجعلُ من النصِّ مفهومًا ضمن إطارٍ معيَّن، فلا يجوزُ لنا في النَّقْدِ الثَّقَافِيِّ أن نطلقَ عبارةً بسيطةً ثمَّ ننحو إلى نقدِها، كعبارة "الجامع الأموي"، فهل وردت هذه العبارة في سياقِ الفنِّ المعماريِّ، أم في سياقِ تاريخيِّ، أم غير ذلك؟ كما لا يجوزُ لنا أن نأخذَ الأفكارَ من سياقاتِها لنطلقَ عليها أحكامًا، أو نستنبطَ منها حكمًا ما. ومن الضَّروريِّ أن نأخذَ السِّيَاقَ كاملاً غيرَ منقوصٍ، وألاً نستأصله من خلفيَّتهِ التَّاريخيَّةِ أو الأيديولوجيَّةِ وألاً وقعنا في لَبْسٍ يُضعِفُ التَّحْلِيلَ والتَّفْسِيرَ الذي خرجنا به.

١. النَّسَق: وردت للنَّسَقِ تعريفاتٌ كثيرةٌ، نأخذُ منها ما أشارت إليه يمينى العيد بقولها في معرضِ الحديثِ عن البنيويَّةِ: "هو ما يتولَّد عن اندراجِ الجزئيَّاتِ في السِّيَاقِ، أو هو بنيويًّا ما يتولَّد عن حركةِ العلاقاتِ

^١ المرجع نفسه، ص ٢٧٤.

بين العناصر المكوّنة للبنية^١ " أي إنّ النسق هو الفكرة أو المفهوم الذي يتولّد من خلال الظروف والملابسات والجزئيات التي تتفاعل فيما بينها ضمن علاقات يحكمها السياق.

وينبغي لنا في هذا المقام أن نفرّق بين شكلين من أشكال النسق؛ أمّا الأول فهو النسق الظاهر، ويتميّز بسهولة التعرّف إليه وكشفه، فهو النسق الذي يحاول الأديب أن يقدّمه للقارئ. أمّا الشكل الثاني، فهو النسق المضمّر، أو سمّه الماورائيّ إن شئت، على اعتبار أنّه يختبئ وراء النسق الظاهر، ومهمّة الناقد الثقافيّ في هذا المقام هو الكشف عنه، وهذا الكشف أو الإيضاح يقدّم للقارئ صورة عميقة داخلية للشعور الفرديّ للأديب، وللشعور الجمعيّ لمجتمعه، وهكذا يقدّم هذا النسق صورة مجملّة أقرب إلى الشمولية للنصّ وأسبابه الاجتماعية والنفسية والتاريخية وغيرها، وما يكمن خلف ذلك النصّ من مظاهر ثقافية متنوّعة، صادقة إلى حدّ بعيد كونها مرتبطة باللاوعي.

٢. الاستعانة بالعلوم والمناهج الأدبية المختلفة، كالمنهج النفسيّ، والتاريخيّ، والاجتماعيّ، وغيره، فالتقدّد الثقافيّ لم يأت معارضا للنقد الأدبيّ، وإنّما جاء مكملًا له، ويعضده باستخدام مناهج مختلفة بدلًا من التركيز على منهج واحد؛ كي تتضح لنا الصورة بشكل أكثر صفاء وجلوّ.

٣. عدم إطلاق الأحكام القيميّة: ونقصد بالأحكام القيميّة تلك التي تتعلّق بالأحكام الجماليّة والأحكام الأخلاقيّة. فالناقد الثقافيّ تفوّع على عاتقه مهمّة الشرح والتفسير والكشف عن الأنساق المضمرة دون أن يطلق الأحكام، وهذا ما يجعل الأعمال الأدبيّة عمومًا متساوية في قيمتها، فالنصّ الجميل والنصّ غير الجميل يملكان القيمة ذاتها؛ لأنّ كلا النصّين يحملان في داخلهما ثقافة فرد نشأ في مجتمع ما، وبالتالي فإنّ النصّ تلقائيًا يحمل ثقافة المجتمع أيضًا، ودور الناقد الثقافيّ أن يكشف النقاب عن هذه الثقافة ويتيح للقارئ الاطلاع عليها بصورتها الشمولية ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

^١ العيد، يمني: "تقنيات السرد الروائي"، دار الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص١٩٤.

إجمالاً لما سبقَ آنفاً في هذا الفصل، نقولُ إنّ الثّقافةَ هي مجموعُ العاداتِ والتّقاليدِ والمعتقداتِ والفنونِ وغير ذلك ممّا طوّره أعضاء المجتمع بفنّاتهم المختلفة، ممّا يجعلُ هذه البيئةَ ذات مغزى، ويأتي دورُ النّاقِدِ الثّقافيّ في الكشفِ عن هذه الثّقافةِ من خلالِ النّظرِ في الأنساقِ الدّاخليةِ المضمرةِ التي تقبُعُ ما وراء النّصّ، والتي تصدرُ في أغلب الأحيانِ دونَ وعيٍ من المؤلّف، ليكشفَ بذلكَ عن ثقافةٍ الآخرِ ومجتمعِهِ، ويتمّ ذلكَ من خلالِ فهمِ السّياقِ كاملاً، والاستعانةِ بالمناهجِ التّقديّةِ المختلفةِ.

الفصل الثاني

نسق الهوية في الروايتين الأوروبية والأمريكية

ملخص رواية لا تدعني أرحل أبدا لكارو إيشيغورو

تدور أحداث الرواية في تسعينيات القرن الماضي ببريطانيا، وهي تتحدث في الأساس عن مجموعة من "التلاميذ" الذين يعيشون في مكان يُسمى هيلشام، وهذا المكان يبدو أنه مدرسة في الضواحي، معزولة عن العالم الخارجي، ثم يتضح لنا لاحقا أنّ هؤلاء التلاميذ هم في الواقع ليسوا طلابا بالمعنى الحقيقي للطلاب، وإنما هم مُستنسخون من شخصيات حقيقية أخرى وقد أُطلق على هؤلاء المستنسخين اسم "المانحين" أو "المتبرعين" وهي كلمة أخف وطنا من غيرها على اعتبار أنّهم استنسخوا لهدفٍ حُدّد لهم مسبقا، أي إنّهم استنسخوا من أجل التبرّع بأعضائهم لاحقا، وليس هناك أي هدف آخر من وجودهم أو من استنساخهم.

يتمّ الاعتناء "بالمُتبرعين" بشكلٍ جيّد، فيتمّ تعليمهم الأدب والموسيقى والفنون، وتتخذ إبداعاتهم لتُعرض وتُباع في معارض خارجية، كما يُخصّص لهم مجموعة من الحراس الذين يُوظّفون في ظاهر الأمر لحراسة هؤلاء "المتبرعين" بالإضافة إلى وجود طاقم يراقبونهم من أجل الحفاظ على صحتهم.

في سنّ السادسة عشرة، يُؤخذ الأطفال من هيلشام ويُرسَلون إلى مكانٍ وسيطٍ يُسمى "الأكوخ" وهناك يحصلون على المزيد من الحرية، حيثُ يستطيعون القيام ببعض الرحلات، ويُسمح لهم بممارسة الجنس - علما أنّهم لا يستطيعون الإنجاب - وبالتالي يحصلون على قدرٍ معيّن من الاستقلالية. كما تُعدّ تلك المرحلة فرصتهم ومحطّتهم الأخيرة لعيش أيّ شكلٍ من أشكال الحياة الفردية والشخصية؛ لأنّهم بعد ذلك سيُباشرون "التبرّع" بأعضائهم للمواطنين البريطانيين، ويتمّ ذلك عبر أربع مراحل، وتُسمى الرابعة بمرحلة الاستكمال، وهو تعبير مخفّف عن الموت.

بطلة الرواية الأساسية هي الساردة، كاثي، بحيث تنقسم الرواية إلى ثلاثة أجزاء تتبّع مراحل حياتها، فتذكر في الجزء الأول طفولتها في هيلشام، وتصف صداقتها مع روث التي كانت تزجّها بالنّظائر أنّها تعرف أكثر من الجميع، وأنّ لديها امتيازاتٍ خاصّة. كما تصف في المرحلة نفسها أيضاً "التلميذ" تومي، ويكون في البداية منبوذاً بين أقرانه لأنّه يفتقر إلى القدرة الفنيّة، فضلاً عن نوبات الغضب العنيفة التي تلاحقه، ولكنّه يتعلّم النّحكّم بها فيما بعد من خلال حديثه مع الأنسة لوسي التي تخبرهم في إحدى المرّات بشكلٍ صريحٍ عن مستقبلهم، وهذا ما يجعلها تختفي وتغادر هيلشام فجأةً.

في الجزء الثاني من الرواية تنتقل كاثي مع روث وتومي إلى منشأة سكنيّة مؤقتة تُسمّى "أكواخاً" حتّى يأتي دور التّبرّع، ويجتمع الجدّد في ذلك المكان مع القدامى الذين لم يكونوا من هيلشام ويختلطون معهم. وفي إحدى المرّات يأتي شخصان "رودني وكريسي" ويخبران روث أنّ رودني رأى "بديلة" روث، أي المستنسخة عنها في نورفولك، فيذهبون في رحلة هناك، ولكنهم لا يجدونها، ولا تكون شبيهة بروث.

في نورفولك، يتساءل كريسي ورودني عن استثناء يسمح للأحباء الحقيقيين من هيلشام أن يؤجّلوا موعد تبرّعاتهم، ممّا يجعل تومي يتعلّق بهذه القسّة، ويفترض نظريّة خلاصتها أنّ "المدام" تستخدم الأعمال الفنيّة للطلّاب لتحديد ما إذا كان الأحباء الذين يتقدّمون بطلبات التأجيل يحبّون بعضهم حقّاً.

يركّز الجزء الثالث على مهمّة كاثي كمقدّمة رعاية؛ أي إنّها ترعى "المتبرّعين المانحين" علماً أنّها ستكون متبرّعة مانحة بعد إنهاء مهمّتها كمقدّمة رعاية.

ترعى كاثي صديقتها السابقة روث التي تخبرها بضرورة زيارة صديقهم القديم تومي، وهناك تعتذر روث من كاثي أنّها سرقت تومي منها سابقاً، وتعطي لكاثي وتومي عنوان "المدام" ليحاولوا تأجيل التّبرّع؛ علماً أنّ تومي حينها كان قد أنهى تبرّعه الثالث.

حينَ تَروُرُ كاثي وتومي المدام، يجدونَ أنَّ التَّأخَّلاتِ كذبةٌ لا وجودَ لها في الواقعِ، ويفهم كلاهما هناك من الأنسة إيميلي أنَّ هيلشام كانت جزءًا من حركةٍ تقدِّميةٍ ملتزمةٍ بتربيةِ المستسخينَ بشكلٍ أكثرِ إنسانيَّةً، وأنَّ "المدام" كانت تعرضُ الأعمالَ الفنيَّةَ للطلَّابِ لتُظهرَ للعالمِ الخارجيّ أنَّ المستسخينَ لهم أرواح، وعلى الرِّغم من أنَّ هذه الحركة كان لها العديد من المؤيِّدينَ إلَّا أنَّ تغيُّرَ الرأْي العام أجبر هيلشام في النَّهايةِ على الإغلاقِ.

وفي طريقِ العودةِ إلى مركزِ التَّعافي، يطلبُ تومي من كاثي أن يتوقَّفا. يمشي في الغابةِ ويبدأ بالصُّراخ، فتذهب كاثي إليه وتحمله، وبعدَ فترةٍ وجيزةٍ يقدِّمُ تومي تبرُّعه الرَّابعَ ليكتملَ؛ أي ليموت بعد ذلك. أمَّا كاثي فتشقُّ طريقَها إلى حقْلٍ في نورفولك لتتخيَّلَ تومي في الأفق، وتبتعد.

نسقُ الهويَّةِ في رواية لا تدعني أرحل أبدا

إنَّ الهويَّةَ الفرديَّةَ ببساطةٍ تعني تعرُّفَ الشَّخصِ إلى نفسه^١، أو هي إجابةُ الفردِ عن سؤال "من أنت؟" وهي تحدَّدُ بشكلٍ كبيرٍ خياراتنا التي نتَّخذُها والأهدافَ التي نبتغيها، بالإضافةِ إلى تجاربنا العاطفيَّةِ وعلاقاتنا مع الآخرين^٢.

قد يبدو من السَّهلِ على الفردِ الإجابةَ عن سؤالِ الهويَّةِ، ولكنَّ ذلكَ يزدادُ صعوبةً حينما يتعلَّقُ الأمرُ بشخصيَّاتِ رواية "لا تدعني أرحلُ" إذ نجدُهم يصطدمونَ دومًا بالسُّؤالِ عن ماهيَّتهم، ويحاولونَ بشكلٍ دؤوبٍ أن يتعرَّفوا إلى أنفسهم، ولكنَّ المشكلةَ هنا لا تقعُ في اللَّبسِ الذي يعتريهم، وإنَّما في ظروفِ خلقهم المختلفةِ، فهم مُستسخونَ عن أشخاصٍ لا يعرفونهم، وبالتالي فإنَّ سؤالهم عن ذواتهم يستلزمُ منهم أن يعرفوا الأشخاصَ الذين استنسخوا عنهم. وهم على عكسِ البشرِ العاديِّينَ، لا يعرفونَ شيئًا عن تاريخِ عائلاتهم، وبالتالي لا يمكنهم التَّأكُّدُ أبدًا من أبسطِ الأشياءِ التي تربطُهم بالأشخاصِ في العالمِ الخارجيّ،

^١ الشربيني، لطفي: "معجم مصطلحات الطب النفسي"، مركز تعريب العلوم الصحية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط١، ٢٠٠٣، ص ٨٠.

^٢ Vignoles, Vivian. "12 Identity: Personal AND Social." The Oxford handbook of personality and social psychology (2018): 289.

فلا يعرفون إذا كان لون عيونهم كذلك لأنَّ أحدَ والديهم يملكُ العيونَ نفسها، ولا يستطيعون معرفةَ الموهبةِ التي ورثوها من أفرادٍ آخرين من العائلة؛ ولذلك يبقى الجزء المهيمن من هويّتهم لغزًا دائمًا بالنسبة لهم، وهذا ما يزيد من ارتباكهم حول هويّتهم ومكانهم في هذا العالم.

وخلال فترة تواجد كاثي في هيلشام، كان يُشار إلى "المتبرّعين" هناك باسم "الطلّاب" ولم يوصفوا على الإطلاق "بالمُتبرّعين" على الرغم من أنَّ "التَّبَرُّع" هو الهدفُ الوحيدُ الذي أنشئوا من أجله. وهنا نرى التَّلَاعِبَ اللُّغويّ الذي يُخفي وراءه الأنساقَ المضمرّة، فكلمة "طالب" تعبيرٌ أخفّ وطأةً على القارئ، وعلى الشَّخصيّاتِ أنفسهم، فهي مرتبطةٌ بالمدرسة والتَّعليم، في حين أنَّهم في الحقيقة ليسوا طُلابًا على الإطلاق، فالطُّالبُ يدرسُ حتّى مرحلة ما ليؤسَّسَ خلفيّةً ثقافيّةً معيّنةً يمكنه من خلالها أن ينطلقَ بعدَ ذلك إلى الحياةِ العمليّةِ والمسؤوليّاتِ التي ستقعُ على عاتقه. أي إنَّ تعليمَ الطُّلابِ يُعدُّ المرحلةَ الأولى من تنشئتهم وتهيئتهم ليكونوا مواطنين منتجين في دولةٍ معيّنة. أمّا في هذه الرواية، فإنَّ كلمة "طالب" لا تحيلُ إلى المفهومِ السَّابِقِ لأنَّ دراستهم للفنون والموسيقا وما إلى ذلك من التَّدريباتِ التي يتلقونها في هيلشام تُعدُّ ملأًا للوقتِ وقتلاً للفراغِ قبلَ أن يصبحَ هؤلاء "الطلّابُ" جاهزين "للتَّبَرُّع" بأعضائهم؛ أي قبلَ أن يكونوا مستعدينَ وجاهزينَ لفكرةِ الفناء.

ومن الغريبِ بمكانٍ أيضًا أن كلمة "طلّاب" ذُكرت مائةً واثنين عشرة مرّةً، في حين لم تُذكر كلمة "معلّم" سوى مرّةٍ واحدةٍ في نهايةِ الرواية، وليس في هيلشام وإنّما في منزل "المدام" ماري كلود حين ذهبت كاثي وتومي لفحصِ إمكانيّةِ تأجيلِ التَّبَرُّعِ كونهما يعيشان علاقةً عاطفيّةً صادقةً، فنقولُ كاثي في وصفِ ذلك الموقفِ: "تقدّمتُ ومدّت يدها ووضعتها على ظهرِ كرسيّين متطابقين أمامها مباشرةً. كان هناك شيءٌ غريبٌ في سلوكها، وكأنّها لم تدعنا حقًا للجلوسِ. شعرتُ أنّنا إذا فعلنا ما تقترحه وجلسنا على تلك الكراسي، فستستمرُّ في الوقوفِ خلفنا ولم ترفعَ يديها عن ظهرِ المقعدين، ولكن عندما تحرّكنا نحوها، تقدّمتُ للأمام، وربما تخيلتُ ذلك ... وعندما استدرنا للجلوسِ، كانت قد وصلت إلى الثّوابِ ووقفت أمام

السَّائِرِ المَخْمَلِيَّةِ وراحت تحدِّقُ بنا كما لو كنَّا في حصَّةٍ تعليميَّةٍ وكانت هي المعلِّمة^١ "أمَّا عن الأشخاص الذين كان يُفترَضُ بهم أن يكونوا معلِّمين في هيلشام فلم يُسمَّوا بذلك، فنقولُ كاثرِي: "شوهدت سيارَةَ "المدام" قادمةً عبرَ الحقولِ بعدَ الظهيرةِ. كانَ الجوُّ عاصفًا ومشمسًا ... كنَّا في الغرفةِ رقم "٩" في الطَّابقِ الأوَّلِ مقابلَ المنزلِ الرِّئيسِ. وعندما رحنا نتبادلُ الهمسَ، لم يستطع السيِّدُ فرانك المسكين، الذي كانَ يحاولُ تعليمنا التهجئةَ، أن يفهمَ لماذا أصبحنا مضطربين فجأةً"^٢ ممَّا يؤكِّدُ أنَّ التَّعليمَ لم يكن هدفًا بحدِّ ذاته، وإنَّما كان وسيلةً لتتَّخذها "المدام" ذريعةً لدعم هيلشام، واتَّضحَ ذلكَ بشكلٍ أكبرَ عندما كانت "المدام" تأخذُ الأعمالَ الفنيَّةَ للطلَّابِ وتعرضُها في المعارضِ العامَّةِ خارج هيلشام كي تثبتَ للمجتمعِ أنَّ أفرادَ هيلشام يملكونَ أرواحاً^٣ ولا يختلفونَ عن باقي المجتمع.

ولا يتوقَّفُ التَّلَاعِبُ اللَّفْظِيُّ عندَ مصطلحِ "الطلَّاب"، بل هناك ألفاظٌ أخرى استخدمَها الرِّوائيُّ ليجمَلَ الصُّورةَ القاتمةَ لأوضاعِ الشَّخصيَّاتِ في هيلشام، مثل مصطلحِ "Guardians" الذي كانَ يُطلَقُ على المعلِّمينَ في هيلشام، وهو مصطلحٌ مشتَّتٌ يتسبَّبُ بكثيرٍ من الالتباسِ للقارئ، فهذه المفردةُ يمكنُ في سياقِ الرِّوايةِ أن تحملَ معنيينِ اثنين، أحدهما: الأوصياء، والآخر: الحُرَّاس. وهم ثلاثة في الرِّواية: لوسي، وإيميلي، وجيرالدين.

ترتبطُ كلمةُ "الأوصياء" بفكرةِ الأوصياء القانونيَّينَ الذينَ يعتنونَ بالأطفالِ القاصرينَ، ولكنَّ هؤلاءِ "الأوصياء" في الرِّوايةِ يظهرونَ كحُرَّاسٍ بشكلٍ أكبرَ من كونهم أوصياء، حيثُ لا تعنيهم القدراتُ الفرديَّةُ للطلَّابِ "وإنَّما يحرصون على أمرين اثنين: الأوَّل هو صِحَّةُ الطُّلابِ؛ لا من أجلِ ذاتهم وإنَّما من أجلِ أن يكونَ النَّبْرُغُ سليماً حينَ يكبرون. والأمرُ الثَّاني: الحرصُ الكبيرُ على عدم خروجِ أحدِ الطُّلابِ من سربِ الجماعةِ، أو من فكرةِ القطيعِ، فهؤلاءِ الأوصياء يعملونَ بشكلٍ أو بآخر على طمسِ الهويَّةِ الفرديَّةِ للطلَّابِ، مقابلَ إحلالِ الهويَّةِ الجماعيَّةِ، وأدلةُ ذلكَ كثيرةٌ، ومنها أنَّ الأفرادَ في هيلشام كانوا يحبُّونَ الدَّهابَ إلى جناحِ

¹ Ishiguro, Kazu. "Never Let Me Go". Vintage Books, New York, 2006, p.190.

² Ibid, p.25.

³ Ibid, p.197.

الرَّيَاضَةُ نَظَرًا لِاتِّسَاعِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى اسْتِيعَابِ مَجْمُوعَاتٍ مُنْفَصِلَةٍ مِنَ الْأَفْرَادِ بِحَيْثُ لَا تَضَاقِقُ الْمَجْمُوعَاتُ بَعْضُهَا، وَهَنَّاكَ كَانَتْ تَسُودُ أَجْوَاءَ الْمَرْحِ وَالْمَزَاحِ، فَيَحَاوُلُ كُلُّ فَرْدٍ أَنْ يَعْبرَ عَنْ نَفْسِهِ بِإِلْقَاءِ نَكْتَةٍ هُنَا أَوْ هُنَاكَ، أَوْ بِمُشَاكَسَةٍ بَسِيطَةٍ، غَيْرَ أَنَّ "الأوصياء" أَوْ "الحُرَّاسَ" بِمَعْنَى أَدَقِّ كَانُوا يَرْفُضُونَ هَذِهِ السُّلُوكِيَّاتِ، وَيُطَالِبُونَ "الطُّلَّابَ" بِالتَّحَضُّرِ^١، وَهُنَا يَقَعُ تَلَاعُبٌ آخَرٌ بِالْأَلْفَاظِ يَجْمَلُ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ، فَالتَّحَضُّرُ بِالنِّسْبَةِ لِلْحُرَّاسِ "أَنْ يَلْتَزِمَ" الطُّلَّابُ "الهدوءَ" وَأَلَّا يَعْبرُوا عَنْ ذَوَاتِهِمْ كَأَفْرَادٍ، وَإِنَّمَا أَنْ يَنَاقِشُوا الْأَدَبَ وَالْفَنُونَ بِشَكْلِ جَمَاعِيٍّ كَيْ يَخْرُجُوا بِصُورَةٍ وَاحِدَةٍ. كَمَا يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ "الحُرَّاسُ" عَلَى جَعْلِ الطُّلَّابِ يَتَجَنَّبُونَ الْمَحَادَثَاتِ السَّرِيَّةَ الَّتِي يُمْكِنُهَا أَنْ تَكْشِفَ شَيْئًا عَنْ دَوَاطِلِ الْفَرْدِ وَمَكُونَاتِهِ، فَكَانَ "الطُّلَّابُ" إِذَا أَرَادُوا التَّحَدُّثَ فِي أَمْرِ سَرِيٍّ بَيْنَهُمْ، يَشْغُلُ بَالَهُمْ، ذَهَبُوا إِلَى مَكَانٍ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَنَصَّتَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَبِخَاصَّةٍ "الحُرَّاسَ" الَّذِينَ يُعَدُّونَ عَائِقًا أَمَامَ اجْتِمَاعِ الطُّلَّابِ أَفْرَادًا^٢، وَهَكَذَا نَجِدُ الطُّلَّابَ يَعِيشُونَ فِي أَجْوَاءٍ مَعْدُومَةِ الْخُصُوصِيَّةِ، بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَعْمَلَ وَفَقًا لِحَرِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَى أَنْ يَبْدَأَ بِتَشْكِيلِ أَفْكَارِهِ وَآرَائِهِ الْفَرْدِيَّةِ، نَظَرًا لِازْدِحَامِ الْجَدُولِ الْيَوْمِيِّ لَدِيهِمْ، وَالْمَرَاqَبَةِ الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي يُولِيهَا الْحُرَّاسُ بِأَلْغِ اهْتِمَامِهِمْ.

هَذِهِ هِيَ الْأَدْوَارُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى "الأوصياء" أَوْ "الحُرَّاسَ" أَنْ يَقُومُوا بِهَا، مُتَّكِلِينَ عَلَى عَدَدٍ مِنَ الْأَسَالِيبِ مِثْلَ غَسِيلِ أَدْمَغَةِ الطُّلَّابِ بِإِشَاعَةِ الْحِكَايَاتِ الْمَرْعَبَةِ خَارِجَ هَيْلِشَامَ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ الْأَوْلَادِ قَدْ تَخَاصَمَ مَعَ أَصْدِقَائِهِ وَهَرَبَ مِنْ هَيْلِشَامَ، ثُمَّ عُنِثَ عَلَى جَنْتِهِ مَقِيدًا بِجَذَعِ شَجَرَةٍ وَقَدْ بُنِيتَ يَدَاهُ وَقَدَمَاهُ. وَهَنَّاكَ حِكَايَةٌ أُخْرَى أَيْضًا تَتَحَدَّثُ عَنْ شَيْخٍ إِحْدَى الْفَتَيَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ مِنْ هَيْلِشَامَ حَتَّى تَسَلَّقَتْ ذَاتَ يَوْمٍ أَحَدَ الْأَسْجِجَةِ لِتَرَى مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ، فَتَحَوَّلَتْ إِلَى شَيْخٍ يَتَجَوَّلُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ^٣، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ لَمْ يَتِمَّ التَّأَكُّدُ مِنْ صَحَّتِهَا، وَلَمْ يَنْقُبْ أَحَدٌ وَرَاءَهَا بِسَبَبِ الْخَوْفِ الَّذِي اعْتَرَى الطُّلَّابَ، وَعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِمْ عَنْ مُوَاجَهَةِ الْمَصِيرِ نَفْسِهِ.

¹ Never let me go, p.4.

² Ibid, p.18.

³ Never Let Me Go, p.37.

ومن الأساليب التي يلجأ إليها الأوصياء أو الحراس في هيلشام؛ إشعار "الطلاب" أنهم يعرفون كل شيء، وليس هناك ما يخفى عليهم، فتقول كاثرين: "لا شك أن الأنسة إيميلي حادة الذكاء بشكل غريب، فإذا كنت في مكان ما لا يُفترض أن تتواجد فيه من المنزل أو الساحات، وسمعت وقع أقدام أحد الأوصياء في طريقه إليك، فغالبًا ما سيكون هناك وقت لتجد مكانًا لتختبئ فيه. لقد كانت هيلشام مليئة بالمخابئ ... ولكن إذا رأيت الأنسة إيميلي قادمة فستشعر بالرعب يملأ قلبك لأنها كانت دومًا على علم أين نختبئ. كان الأمر كما لو أن لديها حاسة إضافية. فبإمكانك أن تختبئ داخل خزانة، وبإمكانك أن تغلفها بإحكام وألا تتحرك على الإطلاق، ولكنك حتمًا تعلم أن الأنسة إيميلي ستوقف عندك ونقول: حسنًا، اخرج الآن!".

إن هذا الكبت والخوف الذي يحيط "بالطلاب" في هيلشام يضعهم داخل نطاق ضيق لا يجدون فيه الوقت ليتساءلوا من هم، وما هو مصيرهم، إنهم منشغلون بالخوف من العالم الخارجي، وعدم قدرتهم على فراق بعضهم بعضًا بعد أن نشأوا في مكان يحظر السمات الفردية ويكرس الهموم الجماعية².

وتُظهر رواية "لا تدعني أرحل أبدًا" أزمة الهوية الفردية للشخصيات من خلال ثلاثة مواضيع مهمة ركزت عليها الرواية، وهي: حرص الطلاب على إيجاد المستسخين عنهم، وأهمية "المقتنيات" في حياة الطلاب، والحاجة إلى المواهب الفنية كوسيلة لإبراز الهوية الفردية.

أمّا الموضوع الأول فقد بان جليًا من خلال نظرة روث الجدية إلى فرصة العثور على الشخصية التي استُسخنت عنها، وذلك بعد أن اكتشفها رودني في نورفولك، وحين أعلن أن الرحلة يمكن أن تلغي شعرت روث بضيق واضح في المشهد الذي وصفته كاثرين بقولها: "كانت روث واقفة أمامي تمامًا؛ ولذلك لم أتمكن من رؤية وجهها، ولكنها كانت متجمدة في مكانها. ثم دون أن تتبس ببنت شفة، التفتت ودفعني خارج الكوخ. استطعت أن ألقى لمحة سريعة على وجهها في ذلك الحين، وحينها أدركت كم كانت تشعر

¹ Ibid, p.33.

² See: Never Let Me Go, p.88.

بالاستيلاء^١ إنها تفتش عن أقل فرصة لها لتجد هويّتها، إنها تبحث عن أي شيء يمكنها أن تعرف من خلاله من هي، ومن يمكن أن تكون لو لم تنشأ في هيلشام، إنها تشعر أنّها لو وجدت الشخصية التي استُسخنت منها فستكون قادرة على إقامة اتّصال مع شخص آخر يشبهها تمامًا، وهو ما سيساعدها على تقوية روابطها بهويّتها الخاصة، كما ستشعر حينها أنّها فريدة ومختلفة عن المُستسخنين الآخرين.

ويُظهر الموضوع الثاني أهميّة المجموعات أو المقتنيات التي يختارها كلُّ طالبٍ من معرض هيلشام، فوفقًا لكاثي، يُسمح للطلاب بتبادل أغراضهم أربع مرّاتٍ في السّنة، على مدار الفصول الأربعة، حيثُ يبيع الطلاب الأشياء التي صنعوها في الأشهر الثلاثة، كاللّوحات والفخار والمنحوتات وغير ذلك بسعرٍ يحدّده الأوصياء "الحراس" مقابل عملة رمزيّة تشتري بها ما تريده من الأشياء التي صنعها الطلاب الآخرون^٢، ثمّ تتحدّث كاثي عن أهميّة المقتنيات من هذه المعارض قائلة: "كانت وسيلتنا الوحيدة لبناء مجموعة من الممتلكات الشخصية، فإذا أردت أن تزيّن الجدران حول سريرك أو تحمل في حقيبتك شيئًا ... فإنّك ستجد حاجتك في المهرجان^٣" وهو ما يُظهر لنا أنّ محاولات الطلاب لخصخصة الأشياء تعرّز حقيقة أنّهم يبحثون عن أيّ طريقة لإضفاء اللمسة الفرديّة إلى حياتهم، إذ يدركون أنّ مثل هذه الأمور تساعدُهم على تشكيل هويّاتهم الخاصّة؛ ولذلك فإنّ إنشاء مساحةٍ شخصيّةٍ حول سريرهم على سبيل المثال يصبح ذا أهميّة متزايدة بالنسبة لهم.

أمّا الموضوع الثالث الذي يكشف عن أزمة الهوية، فهو حاجة "الطلاب" إلى صقل المواهب الفنيّة لإبراز هويّاتهم الشخصية، فتحدّثنا كاثي عن موقفٍ جرى بينها وبين روث، وذلك أنّ طالبةً تُسمّى جاكّي، اشتهرت بقدرتها الفارقة على صنع الزّرافات، وهو ما كان يجعل الطلاب يتهافتون للحصول عليها، ولا

¹ Never Let Me Go, p.108.

² See: Never Let Me Go, p.11.

³ Ibid, p.11.

⁴ See: Never Let Me Go, p.12.

شكَّ أنَّ شهرتها هذه سمحت لها بالحصولِ على هويَّةٍ خاصَّةٍ بها، بعدَ أن أصبحت معروفةً للآخرينَ بسببِ موهبةٍ معيَّنةٍ أتاحت للطلَّابِ فرصةَ تجربةِ امتلاكِ هويَّتهم الخاصَّةَ لأوَّلِ مرَّةٍ.

نسقُ الهويَّةِ في الروايتين الأوروبيَّة والأمریکیَّة

لا يتوقَّف الأمرُ عندَ روايةٍ "لا تدعني أرحلُ أبداً" التي عبَّرَ فيها كاتبها كازو إيشيغورو عن أزمةِ الهويَّةِ في ظروفٍ استثنائيةٍ، فنسقُ الهويَّةِ مهيمٌ بشكلٍ كبيرٍ في الرواياتِ الأوروبيَّة والأمریکیَّة؛ ففي روايةٍ "Anxious People" للأديبِ السويديِّ فريدريك باكمان، والتي تدورُ أحداثُها في السويد - التي تُعدُّ من أكثرِ الدُّولِ رفاهيَّةً في العالم - نجدُ أنَّ جميعَ الشَّخصياتِ دونَ استثناءٍ تعاني من أزمةٍ حقيقيَّةٍ حولِ هويَّتها، وكأنَّ أفرادَ المجتمعِ لا يعونَ ولا يدركونَ مسؤوليَّاتهم وواجباتهم الملقاةَ على عاتقهم، ولا يعرفونَ ما هو العملُ الذي كانَ عليهم أن يعملوه، أو كأنَّ الظروفَ أجبرتهم على شيءٍ لم يرغبوا به، فنلاحظُ أنَّ الشاهدةَ تستجوبُ الشرطيَّ ويشرحُ لها عن علاقتهِ مع ابنه الشرطيِّ¹، ثمَّ إنَّه حينَ علِمَ وابنه بقصَّةِ سرقةِ البنكِ وتحولها إلى دراما رهائن، لم يعلمَ ماذا يجبُ أن يفعلَ، فقاما بالبحثِ في جوجلَ عمَّا يجبُ فعله في مثلِ هذه الحالاتِ²! ما يضعنا أمامَ سؤالٍ مهمٍّ: هل يعرفُ كلُّ فردٍ من أفرادِ ذلك المجتمعِ دوره؟ أم أنَّهم يسيرونَ في تخبطٍ وعشوائيةٍ بسببِ أزمةِ الهويَّةِ؟ أمَّا لصُّ البنكِ فيتبيَّنُ أنَّها أنثى؛ أي سارقة، ولكنَّها في الواقعِ ليست سارقةً حقيقيَّةً، حيث ذهبت إلى بنكٍ غيرِ نقديٍّ، تحملُ مسدَّساً مزيفاً، وترتدي قناعَ التَّزجيجِ، ولم تطلبَ أكثرَ من ستة آلاف وخمسمائة كرونة³؛ أي ما يعادل سبعمائة وثلاثين دولاراً أمريكياً تقريباً؛ لتدفعَ إيجارَ منزلها كي لا تؤخِّدَ بناتها منها إذا عاشت مشرَّدةً في الشَّارعِ، وكانت تفكِّرُ في إرجاعِ المبلغِ بعد أن تؤمَّنه ثانيةً؛ وكأنَّها تريدُ أن تتدبَّنه لا أن تسرقه، ممَّا يجعلُ السَّارِدَ يبرِّرُ لها أنَّ هذه ليست عمليَّةَ سرقةٍ، وإنَّما الحاجةُ قد أعوزتها؛ ولذلك فهي لا تفهمُ ما هو البنكُ النَّقديُّ، وما هو البنكُ غيرِ النَّقديِّ، وبمجرَّدِ تهديدها بالشرطةِ راحت تعتذرُ للعاملةِ ثمَّ فرَّت هاربةً إلى شقَّةٍ كانت مفتوحةً أمامَ المتفرِّجينَ الرَّغبينَ

¹ Backman, Fredrik. "Anxious People". Atria Books, New York: USA, 2020, p.28.

² Anxious People, p.51.

³ Anxious People, p.39.

⁴ Anxious People, p.157.

بشرائها فتحوّل الأمر إلى دراما رهائن بطريقةٍ لم تتخيّلها هي نفسها¹، ثمّ حين وجدت شخصاً كان مختبئاً في الحمام، وشعر أحد الذين جاؤوا لشراء الشقة أنّ المختبئ يعرف زوجته، أمر السارقة بإطلاق النار عليه، وكذلك أمرتها شخصيات أخرى، ولكنها لم تفعل ذلك، بل راحت تهدّئهم وتحلّ مشاكلهم²! فعقليتها ليست عقلية سارقة أو مجرمة، ولكنها انسلخت عن هويتها الحقيقية بسبب الحاجة، وبسبب ما تمرّ به من لحظات صعبة بعد الطلاق من زوجها الذي خانها مع رئيسيتها في العمل، الأمر الذي جعلها تُفصل من عملها وتترك أبناءها تحت رحمة الأب/الزوج الخائن وعشيقته.

زارا، هي شخصيّة أخرى في الرواية، وتعمل مديرة أحد البنوك، ثمّ احتجازها - إذا جازت كلمة احتجاز - مع باقي الرهائن، وحين أُحضرت لتكون شاهدة في قسم الشرطة، راحت هي أيضاً تستجوب الشرطي! ولا يتوقّف الأمر على استجوابها للشرطة، بل كانت تحقّق وتستجوب طبيبتها النفسية أيضاً، وتساألها عن علاقتها مع أمّها³، وكيف كانت ظروفها في طور الطفولة، بدلاً من سؤال طبيبتها النفسية عن ظروفها وأحوالها؛ وربما كان تقلّب الأدوار هنا نابعاً من الفراغ الذي سببه فقدان الهوية. ونستطيع أن نستنبط أحوال الفراغ هذه من كلمات زارا وتصرفاتها، فهي تملك الكثير من المال، وتملك كلّ ما تحتاجه وما زالت تعيش في حياتها، ويملاً الحزن قلبها، وتتساءل باستمرار عن أسباب السعادة.

إنّ المشاهد الخارجي، أو الذي يعرف المجتمع السويديّ من بعيدٍ يظنّ أنّه مجتمع طوباويّ وفقاً للأنساق الظاهرة السطحية، فالتعليم مجانيّ تقريباً⁴، ويعملون في بيئات عمل ممتازة، إذ يحقّ لكلّ عامل خمس إجازات مدفوعة الأجر على الأقلّ في السنة الأولى من العمل، ويحصل الأهالي السويديون على إجازة والدية لمدة خمسمائة يوم تقريباً مدفوعة الأجر تُقسّم على الوالدين، ممّا يمنحهم فرصة للتواصل وقضاء

¹ Anxious People, p.45.

² Anxious People, p.148.

³ Anxious People, p.77.

⁴ Ibid, p.77.

⁵ Wiborg, Susanne. "Privatizing education: Free school policy in Sweden and England." Comparative Education Review 59.3 (2015). P.473.

الوقت الممتع مع العائلة والمولود الجديد، وهي من الدول الأكثر مساواة بين الجنسين¹. وتُظهر التقارير أيضًا المحاولات الحثيثة للحكومة السويدية من أجل فرض السيطرة وتقنين الكحول، إلا أن ذلك كله ما زال في وادٍ، وما هو موجود في الواقع في وادٍ آخر وفقًا لرواية "Anxious People"، فالكحول يُشرب بكثرة، إلى درجة أن السارقة قرّرت عدم شرب الكحول بعد معاناة والدتها بسببه، كما أن ابنة الشرطي جيم مدمنة على الكوكائين، ولا يستطيع أبوها أو أخوها - رغم كونهما من الشرطة؛ أي رجال قانون - أن يساعداها، أمّا جاك، ابن جيم، فحين ماتت والدته أمسك بيدها وقال لها: "لا تقلقي يا أمي، سأعتني بأبي"² رغم أن العكس هو المشهور والطبيعي، ولكن هذا لا يحدث، فالشخصيات تعاني من أزمة الهوية، ومن الفراغ الحاصل جرّاء هذه الأزمة، فضلًا عن صعوبة المعيشة بسبب القوانين أو بسبب سكان ستوكهولم (عاصمة السويد) حيث يقول الراوي عنهم: "ستوكهولم هي تعبير أكثر من كونها مكانًا، سواء بالنسبة للرجال مثل روجر، وبالنسبة لمعظمنا، إنها مجرد كلمة رمزية للإشارة إلى كل الأشخاص المزعجين الذين يعترضون طريق سعادتنا. إنهم الناس الذين يعتقدون أنهم أفضل منّا. هم المصرفيون الذين يقولون (لا) عندما نتقدم بطلب للحصول على قرض، هم علماء النفس الذين يطرحون أسئلة عندما لا نريد أكثر من الحبوب المنومة، وهم كبار السن الذين يسرقون الشقق التي نريد تجديدها، هم الأرانب الذين يسرقون زوجاتنا، هم كل من لا يروننا، ولا يفهمونا، ولا يهتمون بنا"³ وهكذا نجد أن مثل هذه الظروف، ومثل هؤلاء السكان، تسببوا بجعل أفراد المجتمع يكرهون الأشياء المحببة بطبيعتها، أو فطريًا، كالحب، وإنجاب الأبناء، حيث يقول الراوي: "يمكن للحب أن يجعلك تفعل الكثير من الأشياء السخيفة، كالزواج على سبيل المثال، وإنجاب الأطفال، وتمثيل دور العائلة السعيدة"⁴. ولا يُنظر إلى الزواج بهذه الصورة فقط في السويد، بل في أمريكا أيضًا، نراه الطريقة الأسرع لإلغاء هوية المرأة الذاتية، حيث تقول هانا هول في رواية "The Last

¹ Djankov, Simeon, and Eva Yiwen Zhang. "Countries inch towards legal gender equality." LSE Business Review (2021), p.2.

² Anxious People, p.197.

³ Anxious People, p.152.

⁴ Anxious People, p.56.

Thing He Told Me" لكتبتُها لورا ديف^١، بعد أن سألتها طفلةً على الباب: "مسز مايكلز؟!":
"تردّدتُ قبلَ الإجابة - بالطريقة ذاتها التي أفعلها غالباً عندما يسألني أحدهم إذا كنتُ هي. نعم، أنا هي
ولستُ هي! لم أغيّر اسمي، كنتُ هانا هول لمدة ثمانية وثلاثين عاماً، قبل أن ألتقي بأوين، ولم أجد سبباً
لأصبح شخصاً آخر بعد ذلك! لكنني وأوين متزوجان منذ أكثر من عامٍ بقليل، وخلال ذلك الوقت، تعلّمتُ
عدمَ تصحيح الأشخاص في كلتا الحالتين؛ لأنّ ما يريدون معرفته حقاً هو ما إذا كنتُ زوجةً أوين^٢، إذ لم
تعدّ تهمّ كهانا، أو بصفتها هانا التي حقّقت أشياء في حياتها ودرست وتعلّمت، بل إنّ ما يهمّ الآن هي أنّها
أصبحت لا تُعرَفُ إلّا من خلال زوجها. أمّا روجر وأبنائه في رواية "Anxious People" ف لديهم نظريّة
أخرى حول الأطفال، تبرّرها زوجته أنا لينا، فنقول في خضمّ استجواب الشرطي لها حول هرب لصّ البنك:
"يعتقد الجميع أنّه - روجر - يكره الأطفال لأنّه يغضب بشدّة عندما يضع وكلاء العقارات غرفة الأطفال
ضمن المخطّط، لكنّه في الحقيقة يغضب لأنّ الأطفال يرفعون سعر الشقة بشكل لا يُصدّق ... لدينا
ابنان، لكنّهما لا يريدان أطفالاً، يقول ابننا إنّهُ يُفضّل التركيز على حياته المهنية، وتقول ابنتنا إنّ العالم
مكتظّ بالفعل!، فهل تستطيع تخيل مدى سوئنا كأهل لدرجة أنّ أبنائنا لا يرغبون أبداً في أن يكونوا
آباء؟!^٣" وإذا نظرنا إلى هذه الأشياء، وتلك التي وُصِفَت بالسّخيفة، نجدُ بينها رابطاً مشتركاً مهماً، وهو
تحملُ المسؤولية في المقام الأوّل، ولكن لماذا أضحى تحملُ المسؤولية أمراً سخيّاً، رغم الاعتقاد السائد أنّ
تحملُ المسؤولية قيمةً عليا للفرد والمجتمع؟ وهذا ما تجيبُ عنه الأنساقُ المضمرّة للرواية، إذ كيف يمكنُ أن
تكونَ قيمةً عليا، وفي الوقت نفسه لا يُشجّع المجتمع عليها، ولا نظامُ الحكم القائم؟! فوضعُ القوانين لا
يكفي لملء الفراغ في نفوس أفراد المجتمع. إنّهم يحتاجون إلى شيءٍ يحفّزهم للعمل، إلى شيءٍ ليعملوا من
أجله بصدق؛ أمّا الوقوفُ للتفرّج فقط على الإنجازات الظاهرية والسّطحية التي تزداد يوماً بعد يوم، يجعلُ
أفرادَ المجتمع يشعرون بعدم الاستحقاق؛ لأنّهم لم يفعلوا شيئاً، بل فُرِضَت عليهم هذه الأشياء دون أن

^١ روائيةٌ أمريكيّةٌ حاصلةٌ على البكالوريوس في اللّغة الإنجليزيّة من جامعة بنسلفانيا، والماجستير في الفنون الجميلة ضمن برنامج الكتابة الإبداعية في جامعة فيرجينيا، وحصل على عدد من الجوائز والتّكريمات حول أعمالها.

^٢ Dave, Laura. "The Last Thing He Told Me." New York: Simon & Schuster, 2021. P.4.

^٣ Anxious People, p.118.

يفهموها حقًا، أو بحسب تعبير الراوي: "تمَّ أَمْرُ هذا الجيلِ بعدم التَّحَرُّكِ أَبَدًا"^١، فلم يشعر أحدٌ بتأثير الأفراد كأفرادٍ، ولم يستطع هؤلاء الأفراد أن يخلقوا هُويَّتَهُم الخاصَّةَ وطريقَتَهُم الشَّخصيَّةَ في أيِّ مكانٍ يدخلونه؛ ما جعلَ علاقاتَهُم فيما بينهم تتَّسَمُ بنوعٍ من الأنانيَّةِ الظَّاهِرةِ لدى كلِّ منهم، فجميعهم يريدونَ مصلحةَ أنفسهم فقط، حتَّى لو كلَّفَهُم الأمرُ زواجَهُم أو أبناءَهُم؛ وهو ما كانت تعيشُهُ هانا هول أيضًا، حيث تقولُ: "والدي جاك، ووالدتي كارول - التي تفضِّلُ أن أناديها بكارول - كانَ غير مهتمِّين إلى حدٍّ كبيرٍ بأيِّ شيءٍ سوى مسيرةِ والدي العمليَّةِ في التَّصوير. لقد حثَّ جدِّي والدتي أن ترعاني حينَ كنت طفلةً، ولكنني بالكادِ أعرفُ والدي، الذي يسافرُ لمائتين وثمانين يومًا في العام، وحينَ كانَ يحصلُ على إجازةٍ، يذهب لقضايتها بالتَّجولِ في مزرعةٍ عائلته بدلًا من القيادةِ لمُدَّةِ ساعتين حتَّى يراني ويقضيَ بعضَ الوقتِ معي. وفي عيدِ ميلادي السَّادسِ ذهبْتُ والدتي معَ والدي، وحينَ أعادَها، تركتني معَ جدِّي دائمًا"^٢ وليست هذه الأنانيَّةُ غريبةً في الواقعِ عن المجتمعاتِ الأمريكيَّةِ والأوروبيَّةِ، بل نَظَرُ لها علميًّا - بيولوجيًّا تطوُّريًّا - بعدَ رؤيةِ الأمرِ يستشيري ويستفحلُ في تلكَ المجتمعاتِ، فحينَ أصبحَ السُّلوكُ طاغيًا وظاهرًا بشكلٍ لا يدعو للريبة، صارَ بحاجةٍ إلى خلقِ مبرراتٍ له، فأصدرَ العالمُ التطوُّريُّ دوكنز^٣ كتابًا كاملاً أطلقَ عليه "الجين الأناني" وتقومُ فكرتهُ على أنَّ المهمَّ في التَّطوُّرِ هو خيرُ الفردِ (الجين)^٤، وتقومُ حجَّةُ هذا الكتابِ أنَّ الإنسانَ، وجميعَ الحيواناتِ الأخرى؛ آلاتٌ تمَّ إنشاؤها بواسطةِ الجيناتِ، وكما هو الحالُ لدى رجالِ العصاباتِ النَّاجحينَ في شيكاغو، نجت جيناتنا. لملايين السَّنينِ في بعضِ الحالاتِ، وفي عالمٍ شديدِ التَّنَافُسيَّةِ، وهذا يجعلُنا نتوقَّعُ صفاتٍ معيَّنةً في جيناتنا، والصفةُ الغالبةُ التي يمكنُ توقُّعُها في أيِّ جينٍ ناجحٍ، هي الأنانيَّةُ القاسيةُ. هذه الأنانيَّةُ الجينيَّةُ عادةً ما تودِّي إلى الأنانيَّةِ في السُّلوكِ الفرديِّ^٥، وقالَ في أحدِ لقاءاته: "الجيناتُ التي نجحت خلالَ تلكَ الملايين من السَّنواتِ هي تلكَ الجيدةُ في بناءِ الأجسامِ، هي التي تصنعُ الأجسامَ التي

^١ Anxious People, p.30.

^٢ The Last Thing He Told Me, p.15-16.

^٣ هو عالمُ الأحياءِ التطوُّريَّةِ الأكثرَ شهرةً في الأوساطِ العلميَّةِ. وهو بريطانيٌّ، وحازَ عددًا من الجوائزِ العلميَّةِ العالميَّةِ، وخرَّجَ على يديه العديدَ من العلماءِ الكبارِ من أمثالِ ألان جرافين، ومارك ريدلي، كما أثَّرَ في مجموعةٍ أخرى كبيرةٍ من العلماءِ الكبارِ مثلَ ستيفن بينكر، ودانيل دانييت، وهيلينا كرونين، ومات ريدلي، والكثير غيرهم.

^٤ Dawkins, Richard. "The Selfish Gene". UK: Oxford University Press, 2016.p.2.

^٥ The Selfish Gene, p.3.

لديها ما يلزم للحفاظ على تلك الجينات وتمريضها؛ ولذلك أستخدم عبارة "آلة النجاة" فالجسد هو آلة للبقاء على قيد الحياة، وهذه هي الطريقة الأمثل والأقوى لتفسير ماهية الكائن الحي الفردي. إنه آلة بقاء على قيد الحياة، فمصيّر معلوماته المشفرة مرتبط بشكل حاسم بمصيّر الجسد الذي تجلس فيه، فإذا مات ذلك الجسد قبل التكاثر، لن تنتقل المعلومات المشفرة للأجيال القادمة¹ - أي لن يكون هناك إنسان - وهكذا نجد التركيز المبالغ فيه على الذات، والإغفال الواضح للغير، المقصود والمعني من وجهة نظر تطورية من أجل البقاء، مما يشعر الأبناء بطريقة أو بأخرى أنهم لم يكونوا سوى نزوة شخصية؛ خطأ بسيط في الفراش سببه الأنانية؛ أدى إلى تشكّل معاناة إنسان، وحمل ثقيل على والديه. ونلاحظ أيضاً الاهتمام البالغ لدى الأهالي بالعمل والسعي بحرارة نحو إنجاز ذاتي ليدركوا هويتهم معه؛ ولذلك شعر روجر بالسأم وفقدان الهوية مرة أخرى عندما لم يلاحظ أن مكان عمله تأثر بغيبابه، حيث قال للشرطي: "هل تعرف ماذا حدث لهذا العمل بعد مغادرتي - يقصد التقاعد - جاك: لا. روجر: لا شيء! لم يحدث شيء على الإطلاق. كل شيء استمر كالمعتاد²" وهكذا نجد أن كل شيء ثابت غير متحرك، ولا يلعب الفرد أي دور في مجتمعه، إنه اسم بلا هوية، وكأنه رغم عمله وكده وجهده بقي ثابتاً في مكانه دون تطوّر له، ودون تطوّر في آلية العمل. ومع توقّف هذه السيرورة، والإصابة بلعنة الاعتياد، أصبحت الأمور الإيجابية في ظاهرها سلبية في مضمونها وباطنها، وهذا تسبّب لاحقاً بشعور الفرد بعدم جدوى العيش دون هوية تميّزه من غيره بعد أن تساوى المجتمع بشكل كبير، وأصبح العامل الغبي معادلاً للعامل الذكي، ومدير البنك متساوياً مع الشرطي والأخصائية النفسية، والشرطي على درجة واحدة من فهم عمله مع الإنسان الطبيعي الذي يسير في الشارع، وأصبح بإمكان أي شخص يستطيع أن يضغط فوق بضعة أزرار على الحاسوب ويبحث في جوجل، شرطياً أو قادراً على القيام بمهام الشرطي. إنهم جميعاً يركضون في حلقة مفرغة أشبه بتروس "الآلات"، على حدّ تعبير دوكنز، وهذا غريب، إذ زعمت الرأسمالية منذ قدومها إلى أنها تسعى في المقام الأول لنسف مشروع التروس في المجتمع الشيوعي.

¹ Richard Dawkins: The Selfish Gene explained/ <https://youtu.be/OsTC1zgf434>

² Anxious People, p.155.

وهذه أنا لينا، نتحدث عن حياتها مع زوجها روجر أثناء استجوابها من قبل الشرطي جاك، وتؤكد ضرورة الحركة والسيروية المستمرة للحفاظ على زواجهما، مشبهة نفسها وزوجها بأنهما حيوانات! كأسماك القرش، فتقول: "شاهدنا فيلمًا وثائقيًا عن أسماك القرش ذات مرة. روجر مهتم جدًا بالأفلام الوثائقية، وهناك نوع معين من أسماك القرش، يموت إذا توقف عن الحركة. إن الأمر يتعلق بالطريقة التي يتلقون من خلالها الأوكسجين، فلا يمكنهم التنفس إلا إذا كانوا يتحركون طوال الوقت ... الناس بحاجة إلى مشروع؛ لذلك أصبحنا روجر وأنا أسماك قرش، وإذا لم نستمر في التحرك، لن يستتبق زواجنا أي أوكسجين؛ ولذلك نقوم بالشراء والتجديد والبيع، والشراء والتجديد والبيع. لقد اقترحت أن نجرّب الجولف بدلًا من ذلك، لكن روجر لا يحب لعب الجولف¹ وعلى الرغم من الإشادة بالحركة والسيروية، إلا أننا نلاحظ كما ذكرنا آنفًا، أن الحركة تجري في حلقة مفرغة، وليس باستطاعتهم أن يتقدموا ولو بشكل يسير، فإما أن يبقوا في أماكنهم من خلال الحركة الدوائية للتطور الخادع الذي يفرضه "الجين الأناني" من أجل البقاء، وإما أن يعودوا للوراء قليلًا، وفي هذه الحالة يتملكهم اليأس والإحباط والاكئاب الذي يهيئ لهم أن في الانتحار سبيلًا للخلاص، فالمسألة إذن ليست متعلقة - في لاوعيمهم - بالنجاح والطموح والوصول إلى ما تصبو إليه النفس، بمقدار ما هو متعلق بالنجاح في البقاء، بغض النظر عن الكوارث التربوية، ومشاكل الهوية، التي يمكن أن تتسبب بها تلك المحاولات من أجل البقاء.

إن هذه الحالة من الفراغ والوقوف وفقدان الهوية أدت إلى بروز نغمة الانتحار والموت وإنهاء الحياة الرتيبة الروتينية لدى الشخصيات في الروايات الأوروبية والأمريكية. فزارا، تعمل مديرة لأحد البنوك، وتملك من المال ما يكفيها أن تعيش حياتها في ثراء فاحش، ولكنها ما زالت تفكر في الانتحار، وتبحث منذ سنوات عن شقة سكنية في منطقة مرتفعة؛ محاولة خلال ذلك إلهاء نفسها عن فكرة الانتحار. لقد فقدوا قيمة الحياة، ولم يعد هناك أهداف حقيقية يمكن أن يسعوا من أجلها بعد أن أصبح كل شيء يسير في خط متواز لا تعرج فيه ولا صعود أو هبوط.

¹ Anxious People, p.117.

ومن الأشكال الأخرى لأزمة الهوية سوى الفردية، أزمة الهوية الجنسية، وأزمة الهوية العرقية، وتؤدي بالتناغم مع أنساق ثقافية مضمرة أخرى مشتركة إلى إظهار حجم الرجعية والبدائية في التعامل مع الأمور المجتمعية.

أما أزمة الهوية الجنسية للذكور فريماً أفضل من يمثلها حديثاً هو الأديب الأمريكي المثلي الشاب آدم سلفيرا^١، حيث برزت هذه الأزمة في جميع رواياته التي كتبها منفرداً، وهو يُعد من الكتاب الأكثر مبيعاً في السنوات الأخيرة وفقاً لنيويورك تايمز الأمريكية.

إذا نظرنا في الروايات التي كتبها سلفيرا، نجد أن أبطالها المثليين جميعهم يعيشون في ضائقة نفسية أولاً، واجتماعية بيئية ثانياً، فتلاحقهم العقدة المختلفة كالذنب، ويستخدمون الآليات الدفاعية النفسية كالنكوص^٢، والتبرير^٣ وغير ذلك، ففي روايته الأولى "More Happy Than Not" هناك البطل آرون سوتو البالغ من العمر ستة عشر عاماً، ويسكن مع والدته وشقيقه بعد انتحار والده، مما جعله يعيش صراعات نفسية كثيرة، وبخاصة بعد رفضه من قبل حبيبته توماس الذي أصبح يعيش علاقة غرامية مع حبيبة آرون الأولى جينيفيف، مما يجعل آرون يريد الذهاب إلى "Leteo" وهو مكان يقوم بمسح الذكريات المؤلمة. وتشكل الذكريات في الرواية موضوعاً مهماً، فهي إحدى الطرق التي تمكن آرون من التعرف إلى نفسه وإلى صورته وهويته الذاتية وتطويرها، حيث تكون لدى آرون في البداية نظرة ضبابية للمستقبل، قبل أن نعلم لاحقاً أن السبب في ذلك هو أنه تم التلاعب بذكرياته لينسى أنه مثلي الجنس، وعلى سبيل المثال، لا يتذكر آرون علاقته بكولين؛ فنجد أنه يحاول ويكافح لتحديد ميول توماس الجنسية. وفي روايته الثانية

^١ روائي أمريكي شاب ولد عام ١٩٩٠، واشتهر بروايته "They Both Die at the End, More Happy Than Not, and History Is All You Left Me".

^٢ وفقاً لفرويد، إن النكوص آلية دفاعية تؤدي إلى الارتداد المؤقت أو طويل المدى لأننا إلى مرحلة مبكرة من التطور بدلاً من التعامل مع الدوافع غير المقبولة بشكل أكثر تكيفاً، يُنظر: Freud, Sigmund. "Introductory Lectures on Psychoanalysis", The Penguin Freud Library, Volume 1, 2004, p.383

^٣ هو آلية دفاعية اقترحتها آنا فرويد، وهي تعني التشوية المعرفي للحقائق؛ لجعل الحدث أو الدافع أقل تهديداً لأننا، يُنظر: Freud, Anna. "The Ego and the Mechanisms of Defense", Madison, CT: International Universities Press, 1966, p.62

"History Is All You Left Me" فإنَّ البطلَ جريفيْن، وهو الرّآوي أيضاً، يُظهرُ لنا أنَّه يعيشُ في بيئةٍ اجتماعيَّةٍ ممتازةٍ، ومعَ والدين يهتمَّانِ لأمرِهِ إلى أبعدِ الحدودِ، ولا يعارضانِ ميولَهُ المثليَّةَ على الإطلاقِ، ولكنَّ النَّسقَ المُضمَّرَ يكشفُ عن غيرِ ذلكَ تماماً، فحينَ أبَنَّ حبيبَهُ ثيو، قالَ بشكلٍ واضحٍ: "لقد جعلني أشعرُ بالأمانِ أمامَ العالمِ، وأمامَ نفسي"^١، أمَّا جاكسون؛ حبيبِ ثيو الأخير، فكانَ من الواضحِ أنَّه يعيشُ حالةً من الخوفِ والقلقِ، حيثَ تطلَّعَ والداه حينَ كان في الرَّابعةِ عشرةَ من عمرِهِ، ولم يكونا على وفاقٍ قبلَ ذلكَ، بل كانت حياتُهُما مليئةً بالمشاكلِ أمامَ ابنَهُما، ممَّا جعلَهُ ينحو إلى من يشعُرُهُ بالأمانِ مثلِ ثيو^٢. أمَّا الرّوايةُ الثَّالثةُ "They both die at the end" فإنَّها تبدأُ بأزمةِ الموتِ، حيثُ تكون هناكَ منظِّمةٌ تُدعى "Death-Cast" تقومُ بالاتِّصالِ بالنَّاسِ وإبلاغِهِم بأنَّهم سيموتونَ في وقتٍ ما خلالَ السَّاعاتِ الأربعِ وعشرينِ القادمة^٣، فيبدأُ الأبطالُ ماتيو وروفوس الرّوايةَ بحالةٍ من الجزعِ والخوفِ وانتظارِ الموتِ، وفيما هما ينتظرانه تنشأُ بينهما علاقةٌ مثليَّةٌ، علماً أنَّ ماتيو كان ينجذبُ إلى أفضلِ صديقاته ليديا فارغاس، ولكنَّ "النَّظورَ التَّكنولوجيَّ" من خلالِ آليَّةِ عملِ منظِّمةِ "Death-Cast" جعلته يبحثُ عن شخصٍ سيرافقُهُ في رحلةِ الموتِ بغضِّ النَّظرِ عن جنسِهِ؛ وهكذا التقى بروفوس الذي تلقَّى المكالمَةَ ذاتها من المنظِّمةِ فعرَفَ أنَّه سيموتُ أيضاً؛ ليعيشا معاً قصَّةَ حبٍّ تعبَّرُ في الواقعِ عن الجزعِ والهلعِ من فكرةِ الموتِ، وضرورةِ الاستمتاعِ بالسَّاعاتِ الأخيرةِ، أكثرَ من تركيزِها على الأحداثِ أو علاقةِ الحبِّ التي جمعت بين الاثنين.

ويمكُننا أن نأخذَ من أعمالِ الأدبيَّةِ البريطانيَّةِ كلير لايدون^٤ مثلاً على الهويَّةِ الجنسيَّةِ للإناثِ، حيثُ تجلَّتِ الأزمةُ لدى بطلاتِ رواياتِها، ونستطيعُ أن نكشفَ ذلكَ من خلالِ روايتها "Before you say I do" التي تتحدَّثُ عن أبي، وهي امرأةٌ ناجحةٌ، وتمتلكُ وظيفةً مهمَّةً تدرُّ عليها أموالاً جيِّدةً إلَّا أنَّها مملةٌ^٥، وهي مقبلةٌ على الزَّواجِ من رجلٍ يُدعى ماركوس، غير أنَّها في داخلِها لا ترى فيه رجلاً، ويبدو أنَّ والدتها ترى الأمرَ

¹ Silvera, Adam. "History is all you left me". Soho teen, New York; USA, 2017. P.38.

² History is all you left me, p.38.

³ Silvera, Adam. "They both die at the end". HarperTeen, New York; USA, 2017. P.10.

^٤ روائيَّةٌ بريطانيَّةٌ اشتهرت بأدبِ المثليَّةِ الجنسيَّةِ، ومن أبرزِ أعمالِها: Before you say I do, A girl called London, The London of us, and A taste of love.

⁵ Lydon, Clare. "Before You Say I Do". Custard Books, London: UK, 2020. P.26.

ذاته، حيثُ تقولُ أبي: "والدتي تعتقدُ أنَّ عليَّ الزَّواجَ منه فقط لأنَّه يجيئُ التَّعاملَ معَ المطبخِ!"^١، ولطالما أخبرها أنَّها سيِّدةُ العلاقةِ^٢، بل وفي لحظاتٍ معيَّنةٍ كانَ هناكَ شعورٌ سائدٌ أنَّه مثليٌّ مخنثٌ بسببِ حساسيَّتهِ المفرطةِ وأسلوبِ معيشتهِ^٣.

شعرَ ماركوس أنَّ أبي تائهٌ وبحاجةٍ إلى من يخفِّفُ الضَّغطَ عنها فتواصلَ مع جوردان التي تعملُ كإشبينهٍ مزيفةٍ للعروسِ، وتسعى إلى تخفيفِ حدَّةِ الأجواءِ والنُّوترِ. قامَ بذلكَ دونَ أن يخبرَ أبي أو يأخذَ رأيها، وقد تكرَّرَ هذا الأمرُ مرارًا وتكرارًا، كقيامه بحجزِ شهرِ العسلِ في المالديفِ علماً أنَّ أبي تخافُ الطَّيرانَ وكانت قد أخبرته أكثرَ من مرَّةٍ أنَّها تريدُ شهرَ العسلِ في باريس، إلَّا أنَّه حجزَ في المالديفِ في جميعِ الأحوالِ دونَ أن يكثرَ لرأيها؛ فقط لاعتقاده أنَّ الجميعَ يحبُّونَ ذلكَ^٤.

ثمَّ بعدَ ذلكَ بدأَ ميولُ أبي الجنسيُّ للإناثِ يظهرُ ويزدادُ سطوعًا عندما حضرت جوردان؛ إشبينهُ العروسِ المزيفةُ، وسوى علاقةٍ واحدةٍ جمعت أبي مع فتاةٍ أثناء الدَّراسةِ الجامعيَّةِ، كانت علاقاتُ أبي الجنسيَّةُ تقتصرُ على الرِّجالِ حصراً^٥، فما الذي فعلته جوردان لتلفتَ انتباهَ أبي؟

كانَ من الواضحِ أنَّ أبي تعاني من أزمةٍ حقيقيَّةٍ بسببِ الفراغِ الذي تشعره بداخلها أوَّلًا، ولشعورها العميقِ المتراكمِ حولَ عدمِ وجودِ أيِّ جدوى للرِّجالِ في حياتها، فوالدها البيولوجيُّ تركها ولا تذكرُ عنه شيئًا، وعاشت مع والدها غير البيولوجيِّ^٦ بعدَ أن ربَّتها والدتها ستَّ سنواتٍ وحدها^٧، ممَّا جعلها تأخذُ صورةً سلبيةً عن الرِّجالِ عمومًا، مثقلةً بانعدامِ المسؤوليَّةِ والأمانِ، وبدأت هذه الصُّورةُ تتكشفُ أكثرَ فأكثرَ كلَّما اقتربت أبي من جوردان.

^١ Before You Say I Do, p.27.

^٢ Before You Say I Do, p.13.

^٣ Before You Say I Do, p.35.

^٤ Before You Say I Do, p.75.

^٥ Before You Say I Do, p.62.

^٦ Before You Say I Do, p.27.

^٧ Before You Say I Do, p.113.

إنَّ صورةَ الزَّواجِ كما تُظهرُها هذه الروايةُ، تؤكدُ على أنَّه مسألةٌ هامشيَّةٌ في حياةِ الفردِ، أو يُلجأُ إليها بعدَ أن يعيشَ الفردُ حياته بطولِها وعرضِها، ولكن في لحظةٍ ما، عندما تدقُّ "السَّاعةُ البيولوجيَّةُ" تجدُ النِّساءُ يلجأنَ إلى الزَّواجِ كي يحظينَ بإنجابِ أطفالٍ يعيشونَ في أسرةٍ كاملةٍ طبيعيَّةٍ مكوَّنةٍ من أبٍ وأمٍّ، وبدلنا على ذلكَ الحوارِ الذي جرى بين جوردان وصديقتها المقربةِ منها، كارين، بعدما تساءلتا عن السَّببِ الذي سيدفعُ آبي للزَّواجِ من جوردان، فقالت كارين: "ربَّما دقَّتِ السَّاعةُ البيولوجيَّةُ؟" ثمَّ قالت: "كم عدُّ العرائسِ اللواتي كُنَّ بالفعلِ يحبينَ الرِّجالَ الذين أرادوا الزَّواجَ منهنَّ؟"¹ فإذا كانت صورةُ العلاقةِ الأكثرَ قداسةً بين الرِّجلِ والمرأةِ قائمةً وقائمةً على تبادلِ المصالحِ، وتبادلِ بعضِ السوائلِ العضويَّةِ من أجلِ الإنجابِ، لا ريبَ إذن أن نرى مفهومَ الأسرةِ محطَّمًا بالكاملٍ تقريبًا في المفهومِ الأوروبي والأمريكيِّ، ممَّا يرفعُ من الضَّغطِ النَّفسيِّ على الأبناءِ الذين يضطرونَّ إلى التَّواجدِ معَ أحدِ الوالدين حصراً، فكانَ التَّواجدُ الدائمُ لآبي مع والدتها فقط، قد أثَّرَ على هُويَّتها الجنسيَّةِ التي صارت من أجلها طويلاً وما زالت تصارعُ طوال الروايةِ، وهذا التَّأثيرُ لا يقلُّ قدرًا عمَّا عاشه جاكسون حبيب ثيو في روايةِ "History Is All You Left Me" فحينَ تطلَّعَ والدهُ شعرَ بالاعتِرابِ النَّفسيِّ وكانَ أكثرَ قريباً لوالده؛ طلباً للأمانِ والاطمئنانِ، وهو ما وجده في ثيو بعدَ ذلكَ.

هناكَ العديدُ من الأمورِ المشتركةِ التي تربطُ بينَ هذه الرواياتِ، من أهمِّها الهواجسُ الدَّاخليةُ وحالةُ القلقِ الوجوديِّ، والسُّؤالُ المتكرِّرُ عن الذاتِ ورغائبِها، إذ يبدو للوهلةِ الأولى أنَّ شخصيَّاتِ الروايةِ يعرفونَ تمامًا ماذا يريدونَ وأيَّ طريقٍ يسلكونَ، ولكنَّهم في الواقعِ مجربونَ أكثرَ من كونهم يعيشونَ، ولم يستقرُّوا بعدُ على هدفٍ يعيشونَ من أجله.

¹ Before You Say I Do, p.72.

وكما قصت أبي حياتها الحميمة مع الرجال، فإنَّ جوردان أيضًا جرّبت هذا الأمر، وجرّبت الاختلاط مع الرجال^١، ولكنَّ ذلك لم يُفلح؛ الأمر الذي يطرح تساؤلًا جوهريًا: هل هناك ميولٌ مثليّةٌ حقيقيةٌ تتسبّب بأزمةٍ للهويّة، أم أنَّ أزمة الهويّة هي التي تتسبّب بهذه الميول المثليّة؟

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال منوطٌ بمحاورٍ عديدة، أولُها التّجربة، وثانيها السيّاقات الاجتماعية التي تحكم هذه التّجربة، وثالثها البيئة العلميّة والأكاديميّة وموقفها من هذه التّجربة.

لا يمكننا الشكُّ أنَّ أمريكا والدول الأوروبية عموماً تتسمّ بتطوّرٍ علميٍّ هائلٍ بدأت بذوره الحديثة مع بدايات القرن المنصرم، ووصلت إلى ذروتها في الربع الثالث من القرن الماضي. وقد اتّخذت هذه العلوم الحديثة طابعاً تجريبياً صرفاً، ففي محاضرةٍ لريتشارد فاينمان^٢ تحدّث فيها عن المنهج العلميّ المثبّع قائلاً: "إذا لم تتفق فرضيّاتنا وتخميناؤنا مع التّجربة فهي خاطئة. إنَّ مفتاح العلم يقع في تلك العبارة ببساطة. لا علاقة بجماليّات فرضيّاتك، أو بعقريّتك، أو باسمك المشهور والمعروف، فكلُّ ذلك يتهافُ تلقائياً إذا لم تتفق فرضيّاتك مع التّجربة"^٣، كما حقّر العالم الفيزيائيّ نيل ديجراس تايسون^٤ الأهالي على ترك أبنائهم للتّجربة كي يحافظوا على عقريّتهم، حيث قال في خطابٍ له: "يولد الأطفال علماء، إنهم دائماً يقبلون الأحجار - بحثاً عما تحتها - وينزعون بتلات الأزهار. إنهم دائماً يقومون بأشياء تخريبية بشكلٍ عامّ. وهذه هي طبيعة الاستكشاف: أن تفكّك الشّيء بغضّ النظر عن إمكانيّة إعادته كما كان أم لا، وهذا ما يفعله الأطفال. وما يحدث في المنزل أنَّ الطّفّل يصل إلى الثلاجة ويستخرج بيضةً ليعبث بها، فماذا يكون ردُّكم المباشر: توقّفوا عن اللعب بالبيضة لأنّها قد تتكسر، أعدّها إلى مكانها. ولكنَّ هذه في الحقيقة تجربةٌ حول قوّة الموادّ. دع الطّفّل يكتشف أنَّ سقوط البيضة يؤدّي لانكسارها، فهذه تجربةٌ فيزيائيّةٌ سرعان ما تتحوّل إلى تجربةٍ بيولوجيّةٍ حيث يمكنُ تعليمه عن كيفيّة نموّ الدّجاجة من خلال صفار البيض، ثمّ ما الذي ستكلّفه

^١ Before you say I do, p.90.

^٢ هو فيزيائيّ أمريكيّ حاصلٌ على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٦٥ بسبب إسهاماته في تطوير الكهروديناميكا الكميّة.

^٣ Feynman on the Scientific Method: <https://youtu.be/9tjIfFQIIiI>

^٤ هو عالمٌ أمريكيّ في الفيزياء الفلكيّة وله العديد من الكتب المؤثّرة مثل: جولة مارلين في الكون، والفيزياء الفلكيّة للنّاس العجولين، ورسائل من عالم فيزياء فلكيّة وغير ذلك.

البيضة؟! عشرين سنًا؟!^١. إنَّ هذه العبارات التي تكتسبُ طابعًا جماليًا منمَّقًا بالحرية والديمقراطية والتَّماشي مع غريزة الأطفال الاستكشافية، تحوي بداخلها إشكاليات واضحة، بعيدًا عن عدم الانضباط والنظام، وبعيدًا عن حالة الفوضى التي ستؤول إليها الأمور، فإنَّ الطفل سيكتسبُ الحرية في فعل ما يشاء، وبالكيفية التي يريدُها، وستصبحُ التجربة المعيارَ الأوحدَ للكشف عن جدوى الشيء من عدمه. ناهيك عن العادة الاجتماعية المدعومة بالقانون في الدول الأوروبية عمومًا وفي أمريكا، حول وصول الابن أو الابنة إلى سنِّ الثامنة عشرة، فتُطلقُ قيودهم ليفعلوا ما يشاؤون دون قدرة الأهل على التدخُّل، ودون الإمكانية الحقيقية للتوجيه والاستمالة للتعلُّم من خبرات الكبار.

إنَّ مثل هذه العوامل المتعلقة بالتجربة تبدو صحيحة في العلوم الطبيعية ولا غبار عليها، إذ لا يمكن إطلاق دواءٍ على سبيل المثال قبل أن يمرَّ بمراحل التجارب السريرية، ولكنَّ الإشكالية تقع عندما تتسرَّبُ التجربة بهذه الحدود وهذا المفهوم إلى العلوم الإنسانية لتصبحَ نمطًا حياتيًا وواقعًا يصعبُ التخلصُ منه، وبالحرى أنَّه ليس هناك إنسانٌ يستطيع أن يجربَ كلَّ شيءٍ في حدود حياته التي لا يزيدُ متوسطها عن ٧٠-٨٠ عامًا، ناهيك عن أنَّ تجربة القتل يمكن أن تؤدي بحياة القاتل إلى السجن مدى الحياة ليفقدَ كلَّ امتيازات التجريب. بل إنَّ ليزا فيلدمان باريت^٢ أكَّدت في كتابها "Seven and a half lessons about the brain" أنَّ هناك معضلة حقيقية تتعلق بالابتعاد عن التقليد المؤدي للاستفادة من خبرات الغير، فإذا كانَ على جميع البشر اكتشافُ كلِّ شيءٍ بأنفسهم دونَ تقليدٍ، سينقرضُ الجنس البشري^٣.

وإذا ما عدنا إلى التجربة في سياق البحث العلمي حول المثليين، قلنا إنَّ السياق الاجتماعي الذي تقع فيه مثل هذه التجارب غير متوائِم، فمنهم من يتقبَّلون المثلية الجنسية، ومنهم من يرفضونها، وكلاهما يستندُ إلى أيديولوجية معينة ترتبطُ بطريقة ما بالأيديولوجية السياسية، فنجدُ اليمين الذي يضمُّ المتدينيين يرفضُ

^١ Neil deGrasse Tyson| How to Raise Smarter Children: <https://youtu.be/tbX6aMfPtEw>

^٢ بروفيسورة أمريكية في علم النفس، ورئيسة تحرير مجلة "Emotion Review" وهي واحدة من بين أفضل العلماء الذين يتمُّ الاستشهاد بهم في العالم بسبب أبحاثها الثورية في علم النفس وعلم الأعصاب.

^٣ Barrett, Lisa Feldman. "Seven and a half lessons about the brain." New York: Houghton Mifflin Harcourt. 2020. P.75.

المتليّة، ونرى اليسار الليبراليّ عمومًا يميلُ إلى تقبُّلِ المتليّين، ويبقى المتليّ على حدِّ السيفِ بينَ تقبُّلِ المجتمع ورفضه له، ممّا يزيدُ من تأرُّمِ هويّته الجنسيّة.

وإذا ما ألّقينا نظرةً على الإحصائيّات المتعلّقة بتقبُّلِ المتليّين في منتصفِ عام ٢٠٢٠، نجدُ أنّ أمريكا تتقبَّلُهم بنسبة ٧٢% مقابل ٢١% يرفضون، وفي كندا ٨٥% للقبول مقابل ١٠% للرفض، وفي السويد ٩٤% للقبول مقابل ٥% للرفض، وفي هولندا ٩٢% مقابل ٨%، وفي فرنسا ٨٦% مقابل ١١%، وألمانيا وبريطانيا النسبة ذاتها، وفي هولندا ٩٢% مقابل ٨%^١. على الرّغم من هذه الإحصائيّات الطُّبائقيّة التي تؤكدُ تعاطفَ الشُّعوبِ الأوروبيّة والشَّعبِ الأمريكيّ معَ المتليّين، إلّا أنّها في الحقيقة فارغةُ المعنى كما توضّحُ الرّواياتُ المختلفةُ، حيثُ تشيرُ روايةُ "Black Cake" لشارمن ويلكرسون^٢ إلى ما هو متناقضٌ معَ تلكَ الإحصائيّات، إذ تمَّ طردُ الابنةِ بيني لمدّةِ ثمان سنواتٍ من المنزلِ فقط لأنّها ثنائيّةُ الجنس "Bisexual"، وما استطاعتِ العودةُ إلّا بعدَ وفاةِ والدتها تحقيقًا لوصيّتها في لمّ شملِ العائلةِ مرّةً أخرى. وتُبرِّزُ الرّوايةُ التّناقضَ بينَ الإحصائيّاتِ المذكورةِ آنفًا والسُّلوكِ الوالديّ المتّبعِ، حيثُ تقولُ السّاردةُ: "حينَ كانت - بيني - صغيرةً، اعتادت والدتها ووالدها على إخبارها أنّها يمكنها أن تكونَ أيّ شيءٍ تريده. ولكن عندما كُبرت وأصبحت شابّةً، راحوا يخبرونها أنّهم قدّموا تضحياتٍ من أجلها لكي تكونَ الأفضل! إنّ معنى الأفضل ليسَ وفقًا لتصورِ بيني، وليسَ ما تريده وترغبُ به، بل الأفضل من وجهةِ نظرِ الوالدين"^٣، وهذا ما تسبّبَ بشكلٍ أو بآخر، بخلقِ صراعٍ لدى الشّخصيّةِ الأمريكيّةِ بينَ ما يريدونَ أن يكونوا عليه، وما يجبُ أن يكونوا عليه وفقًا لما يراه الوالدانِ مناسبًا، فنظريًا، يدّعي الوالدانِ؛ وهما البيئَةُ الأولى بالغةُ الأهميّةِ في بناءِ الأبناءِ، أنّهما يحترمانِ قراراتِ الأبناءِ مهما كانت، وأنّهما يحترمانِ القراراتِ الفرديّةَ الحرّةَ لأبنائهم، ولكن، عمليًا، هذا ليسَ حقيقيًا، وهذا أحدُ الأسبابِ الذي تنشأُ عنه الصّراعاتُ الشّخصيّةُ والإشكاليّاتُ المتعلّقةُ

^١ Pew Research Center, June, 2020, "The Global Divide on Homosexuality Persists", p.7.

^٢ هي قاصّةٌ وروائيّةٌ وصحفيّةٌ أمريكيّةٌ تقيمُ في إيطاليا، وقد حازت على عدّة جوائز عن مجموعاتها القصصيّة، كما حقّقت روايتها الأولى "Black Cake" التي نُشرت في شباط/فبراير ٢٠٢٢ مبيعاتٍ هائلةً وردودَ فعلٍ إيجابيّةً.

^٣ Wilkerson, Charmaine. "Black Cake". Ballantine Books, 2022, p.29.

بالهوية الجنسية، فرحمة الأبوين تشمل الأبناء طالما توافقت الأهواء، أما إذا اختلفت فيطردون من تلك الرحمة.

إن هذه البيئة الاجتماعية الداعمة - ظاهرياً - للمثليين لم تنشأ من فراغ، وبخاصة أن هناك العديد من الدراسات المتعلقة بالصحة الجنسية أكدت على المخاطر المحتملة لكون الشخص مثلياً فضلاً عن تأكيد مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها (CDC) على أن الرجال المثليين وثنائيي الجنس وغيرهم من الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال لديهم فرصة أكبر للإصابة بالتهاب الكبد الفيروسي "أ" و"ب" و"ج"، كما أظهرت الدراسات أن التهاب الكبد الفيروسي "أ" متفش بشكل شائع بين الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال بسبب التلوث أثناء الاتصال الجنسي، فضلاً عن أماكن الممارسة كحمامات البخار للمثليين والغرف المظلمة^٢، وهناك دراسات أخرى أيضاً أشارت إلى أن معدلات العدوى المنقولة جنسياً ترتفع بشكل كبير لدى الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال، ويُعد مرض السيلان مصدر قلق خاص لأن ارتفاع معدلاته يرفع من احتمالية مقاومته للأدوية المضادة للميكروبات^٣؛ أي إنه لا يؤثر على المثليين وحدهم، بل يمكن أن ينقل المجتمع المثلي الميكروبات المقاومة إلى المجتمع غير المثلي، وبالتالي فإن الأضرار ترتفع على المجتمع بأكمله. ويتكرر الأمر ذاته والمخاوف عيها مع انتشار الكلاميديا بين المثليين، حيث تضاعفت أعداد الإصابات بهذه الجرثومة بفعل ارتفاع نسبة المثليين، أو الذكور الذين يمارسون الجنس مع الذكور، وتصب المخاوف في أن تكون هناك تغيرات سلوكية من شأنها زيادة معدلات

¹ <https://www.cdc.gov/msmhealth/viral-hepatitis.htm>

^٢ مصطلح الغرف المظلمة في هذا السياق يشير إلى تلك الغرف المظلمة التي توجد أحياناً في الملاهي الليلية أو النوادي الجنسية أو الحانات أو المكتبات الخاصة بالبالغين، وتُعرف أيضاً باسم الغرف الخلفية أو الغرف السوداء أو غرف اللعب، وقد تحتوي بعضها على أضواء سوداء أو زرقاء أو حمراء وأحياناً بلا إضاءة. يُنظر:

Emiel Maliepaard (2017) Bisexuality in the Netherlands: Connecting Bisexual Passing, Communities, and Identities, Journal of Bisexuality, 17:3, 325-348, DOI: 10.1080/15299716.2017.1342214. And Parsons, Vic (2 June 2019). "EastEnders' Ben Mitchell wants new gay bar to have dark room for sex" retrieved 24/10/2021

³ Fairley, Christopher K et al. "Frequent Transmission of Gonorrhea in Men Who Have Sex with Men." Emerging infectious diseases vol. 23,1 (2017): 102-104.

البكتيريا^١، ولا يتوقف الأمر عند تسارع انتشار مثل هذه الأمراض فقط، بل هناك أمراض عديدة أخرى مثل الشيجيلا^٢، والزهري^٣، والكثير غيرها.

ولا يختلف تزايد هذه الأمراض بين الذكور عن تزايدها بين الإناث، بل يواجه الأشخاص من المثليات والمثليين ومزدوجي الميول الجنسية والمتحولين عمومًا مشكلات صحية كبيرة وترتفع نسبتها بشكل ملحوظ عن أولئك ذوي الميول الجنسية المغيرة، حيث ترتفع بين مجتمع "LGBT" نسبة الإصابة بالإيدز، والزهري، وعدوى المكورات العنقودية، والمكورات السحائية الغازية، وسرطان الجلد، والكلاميديا، وفيروس الورم الحليمي وغيرها^٤.

أما فيما يتعلق بمشاكل الصحة النفسية، فالدراسات في هذا المضمار كثيرة جدًا ولا يتسع المقام لذكر جميع الإشكاليات التي تتسبب بها أزمة الهوية الجنسية، ومن ذلك النسبة المرتفعة لديهم، لأولئك الذين يميلون إلى إيذاء النفس، أو التفكير الانتحاري أو محاولات الانتحار^٥، فضلًا عن معدلات مرتفعة للغاية من الاكتئاب والقلق، بصورة تفوق المغايرين جنسيًا بمراحل^٦.

¹ Cornelisse, V.J., Sherman, C.J., Hocking, J.S. et al. "Concordance of chlamydia infections of the rectum and urethra in same-sex male partnerships: a cross-sectional analysis". BMC Infect Dis 17, 22 (2017).

² Caruso, Elise et al. "Shigellosis Among Gay and Bisexual Men: A Qualitative Assessment to Examine Knowledge, Attitudes, and Practices." Sexually transmitted diseases vol. 47,9 (2020): 596-601

³ Palakkal, Seena et al. "Viewing the resurgence of early syphilis in light of increasing male homosexuality and childhood sexual abuse." Indian journal of sexually transmitted diseases and AIDS vol. 41,2 (2020): 188-191.

⁴ Yeung H, Luk KM, Chen SC, Ginsberg BA, Katz KA. "Dermatologic care for lesbian, gay, bisexual, and transgender persons: Epidemiology, screening, and disease prevention". J Am Acad Dermatol. 2019;80(3):591-602.

⁵ Jadv, V, Guasp, A, Bradlow, JH, Bower-Brown, S & Foley, S 2021, 'Predictors of self-harm and suicide in LGBT youth: The role of gender, socio-economic status, bullying and school experience', Journal of Public Health.

⁶ Ross, Lori E et al. "Prevalence of Depression and Anxiety Among Bisexual People Compared to Gay, Lesbian, and Heterosexual Individuals:A Systematic Review and Meta-Analysis." Journal of sex research vol. 55,4-5 (2018): 435-456.

فإذا كانت الدّراسات العلميّة الصحيّة الجسديّة والنّفسيّة تؤكّد على الدّوام مثل هذه المشاكل لدى مجتمع المثليّين والمثليّات، فلماذا لا يتمّ إيقاف هذه الظّاهرة؟ ولماذا يتمّ دعمها على مجالٍ واسعٍ من ناحية اجتماعيّة؟

هناك العديد من المحاور التي يمكن التّركيز عليها للإجابة عن السّؤال الأخير، أوّلاً، إنّ عدداً كبيراً من صنّاع القرار وأصحاب المناصب السّياسيّة في الدّول التي تنتشر فيها المثليّة هم مثليون أيضاً، مثل ريتشارد غرينيل الذي كان قائماً بأعمال مدير الاستخبارات القوميّة في إدارة ترامب، وبيت بوتجيج الذي ترشّح عام ٢٠٢٠ لمنصب رئاسة الولايات المتّحدة الأمريكيّة، بالإضافة إلى عددٍ من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكيّ مثل هاريس ووفورد، وتامي بالدوين، وكريستين سينيما، فضلاً عن عددٍ من حكام الولايات مثل جيم ماكجرفي حاكم نيو جيرسي بين عامي ٢٠٠٢-٢٠٠٤، وكيت براون حاكمة أوريغون منذ عام ٢٠١٥ حتّى الآن، وجاريد بوليس حاكم كولورادو منذ عام ٢٠١٩ إلى الآن. وفي السّويد وزير البيئة الأسبق أندرياس كارلغرين، ووزير الهجرة وسياسات اللّجوء في الحكومة السّويدية توبياس بلسترم، وفي هولندا وزير الاقتصاد جوب ويجن، ووزيرة الزراعة جيردا فيربورغ، ووزير الماليّة جان كورنيليس، ونائب رئيس الوزراء كايسا أولونغرين، وفي ألمانيا وزير البيئة وحماية الطّبيعة والسلامة النوويّة بابارا هينركس، ووزير الصحة جينس سبان، ووزير الخارجيّة غيدو فيسترفيله، وفي الكيان الصهيوني وزير الصّحة نيسان هروفيتش الذي ساهم بشكلٍ واضحٍ في السّماح بالتّبرّع بالدم من قبل المثليّين بعد أن كان محظوراً عليهم، والعشرات غير هؤلاء في أكبر الدّول الأوروبيّة التي أعطت انطباعاً حسناً عن المثليّين.

إنّ هذا وحده غير كافٍ كي تلاقي مثل هذه الظّواهر الاستحسان والقبول لدى الشّعوب، ممّا أدّى إلى اللّجوء لأساليب أخرى علميّة تجريبيّة، مثل البيولوجيا، والبيئة، وعلوم الأعصاب وغيرها.

إنَّ البحثَ عن الأساسِ البيولوجيِّ للتَّوجُّهِ الجنسيِّ ليسَ مشروعًا حديثًا، ففي منتصفِ القرنِ التاسع عشر، كان من المقبولِ بصورةٍ عامَّةٍ أنَّ الدُّنويَّةَ الفكريةَ الفطريةَ تفسِّرُ سببَ تعرُّضِ فئاتٍ معيَّنةٍ من النَّاسِ للحرمانِ الاجتماعيِّ^١ وكانَ يُفترَضُ أنَّ أدمغةَ هذه المجموعاتِ التي تضمُّ الفقراءَ والنِّساءَ والملونين^٢ والمثليين جنسيًّا، تعكسُ وضعهم المتدنِّي. كانَ ريتشارد فون كرافت إيبينج^٣ عالمُ النَّفسِ البارزُ، من بين أولئك الذين اعتقدوا أنَّ السُّلوكَ الجنسيَّ المثليَّ كان نتيجةً لتطوُّرٍ معيِّبٍ^٤ وبحلولِ أواخرِ القرنِ التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تغيَّرَ الخطابُ إلى حدٍّ ما، وبقي يُنظرُ إلى أجسادِ المثليين على أنَّها شاذَّة، ولكن تمَّ تصنيفهم على أنَّهم جنسٌ ثالثٌ.

في هذا الإطارِ، كانَ يُنظرُ إلى المثليين جنسيًّا على أنَّهم مقلوبون أو معكوسون؛ أي إنَّ الرِّجالَ المثليين لديهم بعضُ الميولِ الأنثويَّةِ الفطريةِ، في حين كانتِ النِّساءُ المثلياتُ أكثرَ ميلًا للتعبيرِ عن السماتِ الذُّكوريةِ. وعلى الرِّغمِ من أنَّ المثليين لم يعودوا يُعتبرونَ جنسًا مختلفًا مستقلًّا، إلَّا أنَّ نموذجَ الانعكاسِ استمرَّ في تأثيره على طريقةِ تقديمِ البحثِ عن المثليةِ الجنسيَّةِ، ولاسيَّما من حيثِ الارتباطاتِ العصبيةِ^٥.

جاءتِ الدَّلالاتُ الأولى على أنَّ التَّوجُّهَ الجنسيَّ، وبخاصَّةٍ عندَ الرِّجالِ، متأثِّرٌ بشدَّةٍ بالوراثة، من دراساتِ الأسرةِ والنِّواعمِ، حيثُ أظهرت العديدُ من الدِّراساتِ أنَّ الرِّجالَ المثليينَ لديهم عددٌ كبيرٌ من الأقاربِ المثليينَ

^١ See: Terry, Jennifer, and Jacqueline L. Urla, eds. "Deviant bodies: Critical perspectives on difference in science and popular culture". Indiana University Press, 1995, pp.129-169.

^٢ يُقصدُ بالملونين هنا الوصف الذي يُطلَقُ على أيِّ شخص غير أبيض، ونشأ بدايةً في الولاياتِ المتَّحدةِ الأمريكيَّةِ منذ عام ١٧٩٦.

^٣ هو عالمٌ وطبيبٌ نفسيٌّ ألمانيٌّ له العديد من الكتب المؤثرة في علم النَّفس، وهو صاحبُ "الاعتلال النَّفسيِّ الجنسيِّ" الذي صدر عام ١٨٨٦ كأول كتاب مكرَّس كليًّا لتناول الشُّذوذ الجنسيِّ.

^٤ Krafft-Ebing, Richard. "Psychopathia sexualis: With especial reference to the antipathic sexual instinct: A medico-forensic study". Arcade Publishing, 2011, p.652.

^٥ See: Rice, William R., Urban Friberg, and Sergey Gavrilets. "Homosexuality as a consequence of epigenetically canalized sexual development." The Quarterly review of biology 87.4 (2012): 343-368.

مقارنةً بالمتغايرين جنسيًا^١ وهذا ما حدث أيضًا بالنسبة للمثليّات، مما دلّهم على صدق هذه السمة^٢ وقد أشارت دراسات التوائم أيضًا إلى دور الوراثة المهم، فعلى الرغم من اختلاف معدلات التوافق الدقيق في التوائم أحادية الزيجوت (MZ) بين الدراسات، إلا أنها أعلى بشكلٍ موحدٍ من معدلات التوافق في التوائم ثنائية الزيجوت (DZ) أو الأشقاء غير التوائم، وهذا يشير إلى أن التوجّه الجنسي سمةٌ وراثيةٌ.

كان هناك عددٌ قليلٌ من الدراسات الوراثة الجزيئية في هذا المجال أيضًا، ومعظمها قامت به مجموعة دين هامر في المعاهد الوطنية للصحة، حيث أبلغوا عن أول ارتباط للمثلية الجنسية بموقع وراثي محدد عام ١٩٩٣^٣ إذ لاحظوا لأول مرة أن المثلية الجنسية للذكور تبدو مأخوذةً من الأم؛ أي إن المثليين من الذكور لديهم عددٌ من الأقارب الذكور المثليين من جهة الأم. وهذا ما دفعهم إلى التركيز على كروموسوم "X"، ووجدوا أن التوجّه الجنسي للذكور كان مرتبطًا بمنطقة قريبة من نهاية هذا الكروموسوم تُسمى "Xq28" وهي كبيرة ومعقدة وكثيفة الجينات. تكررت هذه النتيجة في دراسات لاحقة كشفت عن أن مشاركة الأليل "Xq28" كانت مرتفعةً بشكلٍ ملحوظٍ بين الإخوة المثليين، ولكن ذلك لم يكن عامل ارتباطٍ حين يتعلّق الأمر بالإناث^٤.

^١ Sanders, Alan R., et al. "Genome-Wide Linkage Study Meta-Analysis of Male Sexual Orientation." Archives of Sexual Behavior (2021): 1-5.

^٢ Pattatucci, Angela ML, and Dean H. Hamer. "Development and familiarity of sexual orientation in females." Behavior Genetics 25.5 (1995): 407-419.

^٣ Hamer, Dean H., Stella Hu, Victoria L. Magnuson, Nan Hu, and Angela M. Pattatucci. "A linkage between DNA markers on the X chromosome and male sexual orientation." Science 261, no. 5119 (1993): 321-327.

^٤ Hu, Stella, Angela ML Pattatucci, Chavis Patterson, Lin Li, David W. Fulker, Stacey S. Cherny, Leonid Kruglyak, and Dean H. Hamer. "Linkage between sexual orientation and chromosome Xq28 in males but not in females." Nature genetics 11, no. 3 (1995): 248-256.

ومع النّقد العلميّ خلال العقد الأخير، بدأت تتّضح معالم الطريق الجينوميّ وعلاقتها بالتّوجّه الجنسيّ، حيثُ أجرت شركة "23andme" الدّراسة الأكبر والأكثر قوّةً على مستوى الجينومات متكئةً على دراسة التّرابط الجينوميّ الكامل^١، ولم تجد أيّ علاماتٍ وراثيّةٍ مرتبطةٍ بشكلٍ كبيرٍ بالتّوجّه الجنسيّ^٢، وفي دراسةٍ أُجريت عام ٢٠١٩ على حوالي نصف مليون شخص، أكّدت أنّه على الرّغم من وجود بعض المتغيّرات الجينيّة التي ترتبطُ بالمتليّة إلا أنّه ليس هناك جين معيّن مسؤولٌ عن السّلوكة المتليّ، فضلاً عن عدم وجود درجةٍ قاطعةٍ تؤثرُ بها الطّبيعةُ أو التّنشئةُ على سلوكِ المتليّين، كما تمّ العثورُ على خمسة متغيّراتٍ جينيّةٍ محدّدةٍ مرتبطةٍ بشكلٍ خاصٍّ بالسّلوكة المتليّ، لكنّ هذه المتغيّرات معاً تمثّل أقلّ من ١% من السّلوكة المتليّ، ما جعلَ بن نيل القائم على الدّراسة يؤكّد أنّه لا يوجد جينٌ معيّنٌ يشيرُ إلى المتليّة، كما أنّ الاختبارَ الجينيّ لمعرفةٍ ما إذا كان الإنسانُ سيقومُ علاقةً مع شخصٍ آخر من نفس الجنس، لن ينجحَ على الإطلاق^٣.

أمّا من ناحية البيئة الأسريّة، فلا يزالُ الجدلُ بين الطّبيعة والتّنشئة محتدماً في أذهان العديد من العلماء والباحثين، وذلك يشملُ البيئة الأسريّة، حيثُ تؤكّد النّظريّات التي تعتمدُ بشكلٍ أساسيٍّ على الآليّات النّفسيّة والاجتماعيّة أنّ المولودَ محايدٌ بشكلٍ أساسيٍّ، وأنّ التّوجّه الجنسيّ يتطوّرُ أثناء الرّضاعة والطفولة من خلال مجموعةٍ متنوّعةٍ من التّأثيرات الاجتماعية. وعلى النّقيض من ذلك، فإنّ العديد من العلماء مقتنعون بأنّ العمليّات البيولوجيّة خلال الحياة الجينيّة وما بعد الولادة تلعبُ دوراً رئيسيّاً في التّحكّم في التّوجّه الجنسيّ، مستدلّين بذلك على ترتيب الولادة بين الإخوة، حيثُ أشاروا إلى أنّه كلّما كانَ للابنِ أخٌ أكبر يُولدُ من الأمّ نفسها، فإنّ احتماليّة كونه مثلياً تتزايدُ؛ وذلك نتيجةً لتحسين الأمّ التّدرجيّ ضدّ البروتين اللاصق

^١ دراسة التّرابط الجينومي الكامل أو ما يُعرّف (GWAS) هي دراسة قائمة على الملاحظة لمجموعةٍ من المتغيّرات الجينيّة على مستوى الجينوم في أفرادٍ مختلفين لرؤية فيما إذا كان أيّ متغيرٍ يرتبطُ بسمّةٍ معيّنة.

^٢ Drabant, E. M., A. K. Kiefer, N. Eriksson, J. L. Mountain, U. Francke, J. Y. Tung, D. A. Hinds, and C. B. Do. "Genome-wide association study of sexual orientation in a large, web-based cohort." (2012).

^٣ Ganna, Andrea, Karin JH Verweij, Michel G. Nivard, Robert Maier, Robbee Wedow, Alexander S. Busch, Abdel Abdellaoui, Benjamin M. Neale, et al. "Large-scale GWAS reveals insights into the genetic architecture of same-sex sexual behavior." Science 365, no. 6456 (2019): eaat7693.

للخلايا الذي يلعب دوراً رئيسياً في التفاعلات بين الخلايا، وتحديداً في عملية التخلق المشبكي^١، وفيما يتعلق بالبيئة الأسرية أيضاً، أشارت بعض الدراسات إلى أن إساءة المعاملة الوالدية، والاعتداءات الجنسية على الأطفال يمكن أن تشكل عاملاً كذلك في تحديد التوجه الجنسي نحو المثلية^٢.

إن مناقشة أي مسألة من منظور الطبيعة في مقابل التنشئة؛ أي جوانب الإنسانية الحتمية في جيناتنا قبل الولادة في مقابل ما تؤثره الثقافة المجتمعية علينا، هي مناقشة وهمية، إذ لا يمكن أن ننسب الأسباب إلى الجينات وحدها، أو إلى البيئة وحدها؛ لأن كليهما متشابك بشدة، لدرجة أنه من غير المفيد تسمية ذلك بأسماء منفصلة كالطبيعة والتنشئة، فتطور الدماغ للطفل ليس محكوماً بالبيئة المادية الجينية فقط، بل يأتي أيضاً من البيئة الاجتماعية عموماً، حيث تُنشط التفاعلات الاجتماعية بعض الخلايا العصبية بشكل متكرر أكثر من غيرها، ما يتسبب في تغييرات تدريجية في الدماغ، تُسمى الدونة^٣، وببساطة أكبر، إن التأييد المجتمعي في بلدة ما، تمثل بيئة اجتماعية قابلة للهوية الجنسية المثلية، تنمي لدى الفرد هذه القابلية، وحين ينتقل إلى بيئة اجتماعية أخرى رافضة للهوية الجنسية المثلية، يكون على دماغه أن يعيد ارتباطه مرةً أخرى، بحيث تؤثر عليه الاعتراضات شيئاً فشيئاً، فيقع في أزمة الهوية، مما يؤدي إلى إشكاليات نفسية قد لا يستطيع التعامل معها؛ ليرى في الانتحار حلاً وخلصاً.

إن ما يعيننا هنا، هو النظر في العلاقة الحتمية - وهو ما سنناقشه في الفصل الثالث بشكلٍ مسهبٍ - التي يفترضها المجتمعين؛ الأوروبي والأمريكي على الأفراد، فمن الغريب بمكان أن تتغنى مثل هذه الدول بالحرية والديمقراطية، وتدعي الدفاع عنها بكل السبل والوسائل المتاحة، ولكننا في الوقت ذاته نرى في الأدب انعكاساً متناقضاً لما تتم محاولة تصويره، كما نرى في التعاطي مع القضايا التي يطرحها ذاك الأدب تأكيداً على هذه الحتمية التي لا يمكن التئسل منها، ففي رواية "Never Let Me Go" قُدِّر

^١ هو تشكل المشابك بين العصبونات في الجهاز العصبي.

^٢ James, William H. "Biological and psychosocial determinants of male and female human sexual orientation." Journal of Biosocial Science 37.5 (2005): 555.

^٣ Seven and a half lessons about the brain, Ibid, p.32.

الموت للأفراد بطريقة محدّدة للغاية قبل ولادتهم. وفي الروايات المتعلقة بالهويّة الجنسيّة، حاول المجتمع العلميّ بدراساته وأبحاثه أن يفرض الحتميّة على مذاهب الأفراد، أو أن يشملها في حدود ضيقة لا يستطيعون التّصلّ منها مهما فعلوا، مقدّرين ذلك بنسبٍ متويّة من الصّعب أن يفلّت منها شخصٌ ما؛ وذلك لتبرير السلوكيّات التي لم يعودوا قادرين على ضبطها، فغلبت صورة التّعميم على الصّورة الفرديّة للذّات. وهنا يمكننا أن نفيّد من رأي ريتشارد دوكنز، حول جينات المثليّة الجنسيّة، حيث يقول: "إنّني أفضل قول شيء أكثر دقّة. وهو أنّه عندما نتحدّث عن جينٍ لأيّ شيء، سواء أكان يتعلّق بالمثليّة الجنسيّة أو أيّ شيء آخر، فنحن لا نعني بالضرورة أنّ الجين له ذلك التأثير حتماً، الجين له تأثير فقط في البيئة المناسبة؛ ولذلك يمكن أن يكون هذا الجين - جين المثليّة الجنسيّة - له تأثير في جعل الذّكر مثلياً في البيئة الحاليّة؛ البيئة التكنولوجيّة والحضاريّة الحاليّة، ولكن لن يكون له تأثير في بيئة مختلفة"، وإذا أردنا صياغة قوله بطريقة أخرى، يمكننا أن نقول إنّ البيئة، مع عوامل أخرى، هي التي تحكم السلوكيّات والمعتقدات والآراء البشريّة. وبدلاً من النّظر في الأمر من ناحية جينيّة وجعلها حتميّة ما استطاع العلماء إلى ذلك سبيلاً، كان الأولى أن يتمّ مكافحتها؛ نظراً للأضرار والإشكاليّات الصحيّة الجسديّة والنّفسيّة التي تسبّبها، بطريقة علميّة أيضاً، فكما أُعدّت الأبحاث المتعلّقة بالتّلاعب بمعرفة الفرد بطبيعته الجنسيّة من أجل جعلهم يصرّحون بميولهم الجنسيّة المثليّة وهم في الأساس مغايرون¹، كان يمكن إعداد الأبحاث لخدمة الأمر من ناحية صحيّة، ومحاولة علاج الحالات بدلاً من التّسليم أنّ هذه هي الفطرة السليمة، أو التي وُجد الإنسان من أجلها، ولا دليل يدعم ذلك على الإطلاق.

وبالعودة إلى إشكاليّات الهويّة، يمكننا أن نجد نوعاً آخر من الأزمات التي يعيشها المجتمع الأمريكيّ، وتعبّر عنه الروايات الحديثة التي تدور أحداثها في أمريكا، وهي أزمة الهويّة العرقيّة. فعلى الرّغم من الادّعاءات المتكرّرة أنّه تمّ القضاء على العنصريّة بين السّود والبيض، إلّا أنّ مظاهر الحياة الاجتماعيّة،

¹ <https://youtu.be/IDmQns78FR8?t=211>

² Morandini, J.S., Dacosta, L. & Dar-Nimrod, I. "Exposure to continuous or fluid theories of sexual orientation leads some heterosexuals to embrace less-exclusive heterosexual orientations". Sci Rep 11, 16546 (2021). <https://doi.org/10.1038/s41598-021-94479-9>

والواقع الذي يطرحه الأدب يؤكد عكس ذلك، حيث تطرح رواية "Such a fun age" للكاتبة الأمريكية كيلي ريد، هذا الموضوع موضحة إشكالية الأنساق الثقافية الظاهرة والمضمرة.

تبدأ أحداث الرواية في ولاية فيلادلفيا الأمريكية، حين تتصل أليكس، المدونة الثرية، بجليسة الأطفال الأمريكية السوداء من أصول إفريقية، إميرا، لتعتني بابنتها براير التي تبلغ من العمر ثلاث سنوات بعد قيام أحد الأشخاص بإطلاق النار على منزل أليكس وزوجها وقدم الشرطة، فذهبت إميرا واصطحبت براير إلى متجر للبقالة، وأثناء تواجدهما هناك، حضر شرطي وسألها: "هل هذا طفلك؟" وحين أجابته بالنفي، وأنها جليسته، بدأت الشكوك تساوره أنها قامت باختطاف هذه الصغيرة، وعززت سيده كانت متواجدة هناك من هذه الشكوك بعد أن تدخلت قائلة: "أنا أم، وقد سمعت الفتاة الصغيرة وهي تقول إنها ليست مع والدتها، وبما أن الوقت متأخر جدًا، شعرت بالتوتر من تواجدها معها" وعلى الرغم من محاولات التبرير الكثيرة والطويلة التي قامت بها إميرا لتقنع الشرطي أنها جليسة أطفال، إلا أنه لم يصدقها وأجبرها على عدم مغادرة المتجر. ثم جاءت المرأة ذاتها وقالت للطفلة: "مرحبًا حبيبتي، هل تعرفين أين والدتك؟، وبعد بضع الأسئلة والإجابات، قرّر الشرطي أن هذه جريمة، مما أثار غضب إميرا، فقالت: "ما هي الجريمة التي ارتكبتها؟ أنا أعمل، لقد أتينا هنا لشراء بعض الجوز، فهل هذه جريمة؟ ثم قامت المرأة التي تدخلت في البداية بالطلب من الشرطي أن يطلق النار على إميرا، فطلب الشرطي من إميرا أن تضع الطفلة على الأرض، فقامت بحمل هاتفها واتصلت بوالد الطفلة، فأتى وشرح لهم الأمر، ثم تركوها تخرج في حال سبيلها¹.

إن النسق الظاهر في هذا المشهد هو إظهار الاستجابة السريعة لدى رجال الأمن وحرصهم على حياة الأطفال من أي مهدد لهم، مما يزيد من درجة الأمن والأمان في الولايات المتحدة الأمريكية، غير أن هذا النسق الظاهر سرعان ما يكشف عن نسق مضمّر يتعلّق بالعنصرية ضدّ السود، فلو لم تكن إميرا سوداء لما أوقفها، كما لم يوقف أحدًا سواها في المتجر ذاته، رغم تواجدها مع أطفال مع ذويهم. وإذا كانت بشرة إميرا

¹ Reid, Kiley. "Such a Fun Age". New York: Putnam's Sons, 2020, pp.6-10.

السوداء قد أثارت الرّيبة بسبب بياض الطّفة، فإنّ هذا لا يعدّ مبرّراً، إذ يخفي مثلُ هذا النّسق خلفه شكلاً من أشكالِ العنصريّة الذي يشيرُ بشكلٍ أو بآخر إلى صعوبةِ تقبّلِ زواجِ رجلٍ أبيضٍ من امرأةٍ سوداء. حتّى إذا سلّمنا بوجودِ ما يثيرُ الرّيبة، أو مجردِ الاطمئنانِ من قبلِ الشّرطيّ على الطّفة، إلّا أنّ ذلك لا يبرّرُ بأيّ حالٍ من الأحوالِ طريقةَ تعاملِ الشّرطيّ معَ إميرا على أنّها مجرّمةٌ رغمَ عدمِ ثبوتِ إدانتها أو اقترافها أيّ فعلٍ إجراميٍّ، كما لا يبرّرُ قولَ السيّدَةِ التي تتخلّت في أمرٍ لا يعنيتها وأشارت على الشّرطيّ أن يطلقَ النّارَ نحوَ إميرا.

كلُّ هذه السيّاقات تؤكّدُ وجودَ عنصريّةٍ بغیضةٍ مبنیّةٍ على اللّونِ مهما حاولَ المجتمعُ أو السيّاساتُ إخفاءها، وهذه العنصريّةُ ما زالت تشكّلُ أزمةً في هويّةِ الأفرادِ الفرديّةِ والجمعيّةِ، فمن حيثُ هم أفرادٌ، يرى السّودُ أنفسهم مضطهّدينَ في بيئةٍ يحاولُ الرّجلُ الأبيضُ فيها السّيطرةَ على الحُكم؛ ولذلك كانَ هناكَ ذهولٌ كبيرٌ حينَ استطاعَ أوباما من الوصولِ إلى رئاسةِ الولاياتِ المتّحدةِ الأمريكيّةِ، بالإضافةِ إلى سرورٍ كبيرٍ بالغِ في أوساطِ السّود، غير أنّ ذلكَ لا يعني أنّهُ تمَّ حلُّ المشكّلةِ العرقيّةِ؛ وهذا ما يؤكّدهُ الصحفيُّ الأمريكيُّ مات باي¹ في مقالٍ له²، يوضّحُ فيه الإشكاليّاتِ التي أعقبت انتخابَ رجلٍ أسودٍ رئيساً للولاياتِ المتّحدةِ الأمريكيّةِ، وتساءلَ بعدَ أن قدّمَ العديدَ من المعطياتِ المتشائمةِ "هل يشكّلُ أوباما نهايةَ السيّاسيين السّود؟"، وعلى هذا الاستفسارِ وحدهُ العديدُ من علاماتِ الاستفهامِ، إذ لم يعرفَ أوباما في تساؤلهِ كنهايةً للذين تخرّجوا من تخصّصه الجامعيّ، أو كنهايةً للحزبِ الديمقراطيّ، أو لسكّانِ ولايتهِ، بل حدّدهُ وعرفّه بالسّود، معلّناً عن الإشكاليّةِ نفسها، وعن أزمةِ الهويّةِ العرقيّةِ ذاتها، التي يعانيها السّودُ في الولاياتِ المتّحدةِ الأمريكيّةِ، مؤكّداً على عدمِ انتهائها، وكأنّ السّودَ كانَ يحقُّ لهم التّجربةَ لمرةٍ واحدةٍ فقط، وانتهت هذه المرّةُ.

¹ صحفيّ ومؤلف وكاتب سيناريو أمريكيّ، وكاتب عمود في صحيفة واشنطن بوست، كما كان لأكثر من عقد كبير المراسلين السيّاسيين لجريدة نيويورك تايمز.

² See: Bai, Matt. "Is Obama the End of Black Politics?." New York Times Magazine 10.08 (2008).

التطوُّر التكنولوجي سبباً في أزمة الهوية

لقد أظهرت رواية "لا تدعني أرحل" لكازو إشيغورو تطوُّراً هائلاً في سياق التكنولوجيا، أدّى إلى خدمة الطبِّ والمرضى بشكلٍ واضحٍ جليٍّ، إذ لم يعد المرءُ بحاجةٍ إلى البقاء في قوائم الانتظار الطويلة لأيامٍ أو أسابيعٍ أو أشهرٍ، وفي بعض الأحيان حتى الوفاة، بل أصبح الطريقُ إلى الأعضاء البشرية قصيراً صناعياً طبيعياً في الوقت ذاته. هذا هو النسقُ الظاهرُ الذي يبيِّنُ الأهميةَ التكنولوجيةَ ومنافعها في العصر الحديث للإنسان وحياته بالمعنى الحرفي لها. ولكنَّ هذا الأمرُ وهذه الفائدة كلَّفت أضراراً نفسيةً تعجزُ الكلمات عن وصفها، بل إنَّ أقلَّ ما يمكنُ أن يُقالَ فيها إنَّها سبَّبت قلقاً وجودياً، فضلاً عن الانهيار الأخلاقيّ البين للمجتمع الطبيِّ والتكنولوجيِّ، فحينَ تقومُ باستنساخِ أفرادٍ، وتؤكدُ بذاتك على أنَّ لهم أرواحاً ومواهبَ فنيةً وأدبيةً وموسيقيةً، ثمَّ تقوم بإعدامهم قصداً، وتحدّد حياتهم ومصيرهم قبلَ ولادتهم، فذلك يعني وجودَ إشكاليةٍ أخلاقيةٍ واضحةٍ.

إنَّ وجودَ هذه الإشكالية الأخلاقية لا يعني أنَّ المجتمعات الأوروبية أو المجتمع الأمريكي أضحيَ بلا أخلاقٍ، وإنَّما أدَّت تعقيداتُ الحياة والزَّهو بالإنجازات العلمية والتكنولوجية إلى إحداثِ لبسٍ في المفاهيم القيمة، فلا أحد منهم يوافقُ على القتلِ، بل إنَّ بعضهم يعارضُ القتلَ الرحيمَ، ولكنَّ "الغاية" برَّرت الوسيلة؛ أي إحياء فردٍ برَّرَ قتلَ فردٍ آخر. وهذا ليس بغريبٍ على الثقافة الأوروبية، إذ كان التَّنظيرُ الميكافيليِّ السياسيُّ سابقاً على مثلِ هذه التجاربِ، وربما أصبحَ هذا التَّنظيرُ بعدَ مئات السنين جزءاً من اللاوعي الأوروبي.

ولا يتوقَّف الأمرُ عندَ استنساخِ البعضِ وتهيئتهم للموتِ، بل هناك جزءٌ أشدُّ تعذيباً من حيثِ الهوية تركته التكنولوجيا والمستحدثاتُ العلمية، أشارَ إليه الأدبُ في رواياتٍ كثيرة، من بينها "عقري" ... إلى حدِّ ما، حيثُ جاءت فكرةُ بنوكِ العباقة التي تُعنى بتخزينِ الحيواناتِ المنويةِ لأشخاصٍ عباقة، ويتمُّ تصديرها للنساء اللواتي يرغبنَ بإنجابِ عباقة، ولكن بشرطِ عدمِ إفصاحِ هذه البنوكِ عن الأبِ على الإطلاق، ولا تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف. وهذا وإن كان قد يبدو إيجابياً في ظاهره حيثُ يساهمُ في ارتقاء النوعِ البشريِّ

وتطوره وارتقائه من خلال زيادة العباقرة في العالم، وهم ذائهم الذين سيعملون العالم علمياً في السنوات المقبلة، ويمكنهم إحداث ثورات مختلفة في الطب والصيدلة والفيزياء والرياضيات، وعلوم أخرى من شأنها أن تحسن الحياة البشرية وترفع من جودتها، وبدلاً من استحقاق عدد قليل لجائزة نوبل سنوياً، ستصبح هناك أجيال جديدة بأكملها يُفترض أن تستحق جائزة نوبل، وبخاصة أن المتبرعين بالحيوانات المنوية حاصلون على جائزة نوبل، أو ترشحوا لها، فكم سيؤدي ذلك إذن إلى إفادة البشرية بملئها بالعباقرة؟

إن هذا النسق الظاهر المرتش والمنمق بحيث يمكنك أن تكتب فيه صفحات كاملة من المديح، يخفي أيضاً أنساقاً كثيرة مضمرة، من أبرزها نسق "الحتمية" الذي سنتعرض له في الفصل الثالث، بالإضافة إلى نسق الهوية وهو الغاية من هذا الفصل، إذ تعرض رواية "عقري ... إلى حد ما" معضلة متعلقة بالهوية، فهؤلاء الأبناء المنجبون، مثل فرانسيس والعشرات غيرهم، لا يعرفون أباهم، ولا يحق لهم أن يبحثوا عنه، وسيضطرون إلى تحمل شرح كبير في هويتهم نتيجة لعدم الوعي بأبيهم أو صفاته الحقيقية ولا عائلته، فضلاً عن استحالة معرفة أشقائه من البنين والبنات؛ لأنه ما زال يُنظر إلى هذا الابن على أنه غير شرعي بشكل أو بآخر، فلا فرق بينه وبين ابن النزوة الجنسية، فالأول ابن نزوة المال، إذ يحصل المتبرع على خمسة آلاف دولار، والثاني ابن نزوة الجنس. ولن أبتعد كثيراً لأصف حالات ربما تكون نادرة عند بداية المشروع، مثل اختلاط الأنساب دون علم أحد، ولكن هذا سيصل في يوم من الأيام، ربما بعد قرون إذا استمر، إلى إفناء الجنس البشري بالأمراض الهالكة التي تسبب بها زواج الأقارب من الدرجة الأولى بعد انتشارهم دون معرفتهم ذلك.

وعودة إلى أزمة الهوية، سيشعر الشخص المنجب بهذه الطريقة بعقدة نقص من حيث نسبه، رغم أن ذلك قد يكون خفيف الوطأة على الشعوب الأوروبية والأمريكية عموماً بعد اختلاق مصطلح "الأم العازية" الذي طبع بطريقة ما وجود أبناء من هذا القبيل، ولكن أضيف إليهم عدم القدرة على معرفة آبائهم، وبالإضافة إلى ذلك، قد تقع كوارث أخرى مهولة، فإذا كانت الأم تعتمد على بعض الأوراق والشهادات التي تثبت جدارة الأب، فإن ذلك لا يمكن أن يكون محتماً من ناحيتين؛ الأولى أن عوامل الأم الجينية لها علاقة

أيضاً بذكاء الابن، فضلاً عن البيئة التي يعيش فيها، والتّعليم الذي يتلقّاه، وما إلى ذلك من الأسباب الكثيرة. أمّا النّاحية الثّانية فهي عدم مصداقية الأوراق التي تُقدّم؛ لتسقط آخر الآمال التي اتّكأت عليها الأمّهات أو أصحاب المشاريع أنفسهم، كما فعل والد فرانسيس وفام بتزوير شهادات هارفرد، واختبار معدّل الذّكاء، واختلاق سيرة ذاتيّة لا علاقة لها بالشّخصيّة الحقيقيّة للأب على الإطلاق، وهنا ستزداد أزمة الهويّة وتتضاعف، فبعد أن كان الابن يظنّ نفسه شيئاً ما، سيصحو على أنّه شخصٌ مختلفٌ تماماً، ولا علاقة له بما كان يتوقّع، الأمر الذي سيسبّب صدمة له وانتكاسة نفسيّة قد لا يستطيع التّغلب عليها.

إنّ مثل هذه الأزمتِ المتعلّقة بالهويّة يمكن أن تؤدي بحياة التي يعانون منها من خلال الانتحار، كما هو الحال مع فرانسيس بطل رواية "عبري ... إلى حدّ ما" الذي أراد أن يذهب للجيش رغم إيمانه أنّه إذا ذهب فلن يعود، ولكنّه شعر أنّ هذا هو الحلّ الوحيد ليشعر بقيمته كإنسان حقيقيّ يعيش في مجتمع دون الشعور بالنقص، لتحوّل عقدة النقص هذه إلى عقدة نفوق، أنّه بطل حرب ودُفِن في جنازة عسكريّة.

والشكل الآخر من أشكال الموت الذي يمكن أن تسببه هذه الأزمة، هو الموت المحتّم على الأفراد، كما هو الحال في رواية "لا تدعني أرحل"، وفي كلتا الحالتين، يشعر الشّخص بنوع من المهادنة مع الموت، وبدلاً من أن يكونوا متميّزين أو عابرة أو أبناء بيئة فنيّة موسيقيّة أدبيّة، سيكونون أشخاصاً يائسين يشعرون بفراغ كبير داخلهم، وبعدم جدوى العيش، أو قناعتهم بعدم استحقاقه وتسليم أنفسهم إليه.

إذن، وممّا سبق، نستشف أنّ ما يُعدّ مظهرًا من مظاهر النّقد والحضارة والنّهضة الثقافيّة، يمكن أن يكون عكس ذلك على الإطلاق، بحيث يودّي دوراً عبتياً ويخلق أزمات فرديّة وجمعيّة تتسبّب بمشاكل نفسيّة على أقلّ تقدير، وبالموت في أسوأ الأحوال.

الفصل الثالث

نسقُ الحتمية في الروايتين الأوروبيّة والأمريكيتي

إنَّ نسقَ الحتمية في الأدبين الأوروبي والأمريكّي ليس وليدَ الحداثة والتكنولوجيا فقط، بل هو قديمٌ قدّم الأدب نفسه، وإن كان في سابقِ الزمنِ متخذًا مفرداتٍ أخرى مرادفةً، كالقدريّة وإرادة الآلهة، وما إلى ذلك من المصطلحات التي تنفي حرية الإنسان، وتقدّم عليها الحتمية والجبرية التي لا قرارَ للإنسان فيها، ولا يكونُ خلالها سوى ترسٍ بسيطٍ يمشي في آلة الحياة كما هو مخطّطٌ له، أو ممثلٌ على مسرح الحياة^١، كُتبَ دوره وانتهى، وما الإنسان سوى مؤدّ لهذا الدور.

وإذا ألقينا نظرةً على العصور التي برزَ فيها أعلامُ الأدبِ القدماء، وجدناهم متمسكين بهذا النسقِ مؤكّدين على العقلية الأوروبية وأنماطِ التفكير الخاصة بها، من خلاله، فسوفوكليس^٢ على سبيلِ المثال، كتبَ واحدةً من أشهرِ الأمثلة على التراجيديا اليونانية الكلاسيكية؛ وهي مسرحية أوديب^٣، التي حتمت على الابن الصلبي أن يقتل أباه البيولوجي.

إنَّ اسمَ المسرحية ذاته، والشخصية الرئيسية عينها، تكشفُ لنا عن طريقة التفكير بالإنسان لدى الأوروبيين القدماء، وتلمحُ إلى إجاباتهم حول السؤال الأكسيولوجي القيمي، وهو: "هل الناس مسؤولون حقًا عن أفعالهم؟" فاسمُ أوديب، الذي يعني "المُصَفَّد" أو "المُكَبَّل" نظرًا لتكبلِ قدميه ورميه على الجبل ليموت، يكشفُ لنا نظرة الأوروبيين قديمًا للإنسان، أنه كائنٌ مُتَحَكِّمٌ به من قِبَلِ القوة الإلهية أو الشيطانية، وأنَّ حياته مسيرةً بالمطلق، وما عليه سوى أن ينفذها واهمًا أنه بذلك يتخذُ قراراته الشخصية، وحتى حين يودُ أن يكونَ فاضلاً من خلال اتّخاذ القرارات الأخلاقية الحرة - كترك أوديب مَنْ ظنَّه والدَه - فإنَّه سيعودُ إلى

^١ "ممثل على مسرح الحياة" تعبيرٌ شكسبيريّ استخدمه في عدد من مسرحياته.

^٢ هو واحدٌ من أعظم كتّاب التراجيديا الإغريقية، وهو منشئُ شخصية أوديب التي ارتكزت عليها الدّراسات النفسية لفرويد. وُلِدَ عام ٤٦٩ ق.م، وتوفي عام ٤٠٥ ق.م.

^٣ See: Sophocles. "Oedipus the king", Delphi ancient classics, 2013.

ارتكاب الخطيئة الأصلية التي فُدرت له قبل ولادته، ما يجعل خياراته الأخلاقية والحياتية محصورة بشكل كبير فيما فُدر له مسبقاً.

ومع تطور طريقة التفكير هذه، وإفقاد الإنسان حقاً أساسياً من حقوقه، وهو حرية اتخاذ القرار، نبعت نظريات نفسية وبيولوجية عديدة عملت على تأكيد هذا الأمر، بدءاً من فرويد الذي قدّم لها الإرهاسات الأكثر إحكاماً، والتي عمل بها بعد إخراجها ضمن علم التحليل النفسي، وذلك بأن أشار إلى عقدة أوديب أولاً في تفسيره الأحلام، ثم فقدان الإنسان خياراته الأساسية وعدم إمكانية التغيير بعد السنوات الخمس الأولى من عمره^١، إذ تكون القوالب المجتمعية والأسرية والدينية قد تحكمت بعقلية الطفل، ما يمنع تطوره أو تغييره في معزل عنها البتة، وهذا وإن ساد في ذلك الزمن، إلا أن علماء النفس الحاليين مع تطور علم النفس وأدواته التجريبية، يفندون جلّ ما يذهب إليه فرويد جملة وتفصيلاً، ويضرب بالتحليل النفسي عرض الحائط. ففي دراسة أعدّها الطبيب النفسي جويل باريس^٢ عام ٢٠١٧، بعنوان: "هل ما يزال التحليل النفسي وثيق الصلة بالطب النفسي؟"، أكّد فيها أن التحليل النفسي زعم كونه علماً، لكنّه لم يكن كذلك، ولم يسلك الطريق ذاته، إذ فشل في تفعيل فرضياته أو اختبارها بأساليب تجريبية، أو إزالة العقدة التي فشلت في الحصول على دعم علمي^٣.

ومن الأسماء التي لمعت في الأدب الأوروبي وعبرت عن الأمر ذاته، والحميّة نفسها تقريباً، مع بعض التطوّرات فيها، شكسبير، ومسرحيته مكبث، حيث عملت الشخصيات في تلك المسرحية على تحقيق تلك النبوءات وكأنّها قدر محتوم على أبطال تلك المسرحية، ولكن الاختلاف بين أدب العصر الوسيط الأوروبي؛ الأدب الشكسبير، والأدب الأوروبي القديم؛ الإغريقي، يتجلّى في أن أدب الإغريق كان لا يترك

¹ Bocock, Robert. "Freud and modern society: An outline and analysis of Freud's sociology". Nelson, 1976, p.95.

^٢ طبيب نفسي وُلِد في نيويورك، وأمضى معظم حياته في كندا. كتب ١٩٣ مقالة علمية، وألف سبعة عشر كتاباً مفرداً، وأربعين فصلاً في كتب متفرقة.

³ Paris, Joel. "Is Psychoanalysis Still Relevant to Psychiatry?." Canadian journal of psychiatry. Revue canadienne de psychiatrie vol. 62,5 (2017), p.308.

خيارًا على الإطلاق للشخصيات أن تتدخل في صناعة القدر، بل كانوا يحاولون تجنبه بطريقة ما، كما فعل أوديب، في حين نجد شخصيات شكسبير تسعى بشكل حثيث إلى تصديق النبوءات بالفعل، وتعمل على ذلك، فتتدخل بطريقة ما في صناعة قدرها الذي رسمه العرافون والكهان مسبقًا؛ متخذين من ذلك الرسم خريطة حتمية ودافعًا قويًا لتحقيقه.

استمر نسق الحتمية في توهجه حتى بلغ أوجه وذروته مع العصر الجديد، عصر التكنولوجيا والتقدم العلمي، وبخاصة في هذا القرن؛ القرن الواحد والعشرين، وبدلاً من أن يزيل الخرافات والأوهام المتعلقة بالقضايا الحتمية، رسّخها في المجتمعين الأوروبي والأمريكي ووطّد أركانها، رغم نبذه للكهانة والعرافة، وابتعاده عن قضايا الأديان الغيبية مسافة أدت إلى إنكارها وإنكار غيبياتها، حيث وصلت نسبة الملحدين وغير المتدينين في الولايات المتحدة الأمريكية ٤٣%، وفي فرنسا ٥٥%، وألمانيا ٦٦%، وإسبانيا ٦٣%، والنرويج ٧٠%، والسويد ٧٨%، وفنلندا ٦٢%^١، وهي نسب مئوية كبيرة تمثل جزءاً كبيراً من المجتمع، بل الجزء الأكبر في العديد من الدول.

إنّ هذا النبذ الكبير للقضايا الإيمانية يتركز كما أشرت إلى العلوم والتكنولوجيا، فبدلاً من النظر إلى الكتاب المقدس الذي يفسر نشوء العالم بطريقة غيبية لم يرها أحد، بغض النظر عن صحة التفسير أو خطئه، لجأوا إلى العلوم المختلفة، بل أسسوا علوماً جديدة كعلم الكونيات "Cosmology" الذي يبحث في أساس الكون ومآله بناءً على الأدلة التجريبية المشاهدة عينياً والموثقة، ثم هدموا من خلاله ومن خلال النظريات الأخرى المختلفة، ومن أبرزها نظرية التطور، الأسس الدينية الغيبية، ولكنهم مع ذلك، لم يهدموا فكرة القدرية والحتمية وانعدام الإرادة الحرة، بل وافقوها مع العلوم المتطورة المختلفة، فمنهجوا لها وراثياً من خلال البيولوجيا، ونفسياً من خلال علوم النفس المختلفة، وأبرزها الأعصاب "Neuropsychology" والبيئة "Environmental psychology"، وغيرها. وقد عبّر الأدب الأوروبي والأمريكي عن هذا النسق؛ الحتمية، في جلّ الأعمال الأدبية التي صدرت منذ مطلع القرن العشرين، وكلّما تقدّمت السنوات، ازداد

^١ <https://worldpopulationreview.com/country-rankings/most-atheist-countries>

عدّد الأعمال التي ركّزت على هذا النّسق، وتعاملت مع الإنسان على أنّه آلة مسيّرة من قِبَل الجينات الوراثيّة والبيئة النّفسية التي يعيش فيها، وفي أحيانٍ أخرى يُسيّر من قِبَل الحكومة أو المؤسّسات الخاصّة بها، أو المؤسّسات التي لها أهدافٌ وغاياتٌ معيّنة، كما حدث في رواية "Never Let Me Go" لكارو إيشيغورو، التي تؤكدُ لعنة الحتميّة التي ضربت أوروبا، بمساندة المتحدثات التكنولوجيّة المختلفة، فبعد نجاح استنساخ الحيوانات، سعت بعض الدّول، كما تعبّر الرواية البريطانيّة، إلى استنساخ البشر، وقُدّرت حياة كلّ متبرّع (مستنسخ) مسبقاً، إذ حتموا عليه أن يتبرّع بأعضائه للمرضى غير المُستنسخين حتّى آخر عضوٍ مهمّ، ثم يُشيعُ المُستنسخ للموت. وإنّ استخدامي لكلمة "يتبرّع" ليس إلّا ابتغاء الأمانة في الترجمة "Donate" وهي النّسق الظاهر، غير أنّ النّسق المُضمّر المخفيّ (يسرق العضو منه) أدقّ، إذ لا يتبرّع الإنسان إلّا طواعيةً وعن دافعٍ خيّرٍ وإدراكٍ لما يفعله، ولكنّ أبطال رواية إيشيغورو استنسخوا لهذه الغاية ولا يعرفون لغير ذلك سبيلاً.

وإذا كان في قضية "النّبرع" نسقٌ ثقافيّ ظاهرٌ يُعنى بحلّ مشكلة نقص الأعضاء وقوائم الانتظار الطويلة في المستشفيات، التي تنتظر متبرّعين لإنقاذ حيواتٍ آخرين، إلّا أنّ في ذلك أيضاً نسقاً مضمراً مدمراً لحياة أرواحٍ أخرى؛ أرواح طمعت - كما هو مألوفٌ ومتعارفٌ عليه لدى الإنسان عامّةً - بالحبّ والعاطفة واستكمال الحياة مع الشريك، غير أنّ ذلك لم يكن متاحاً أو مباحاً للمستنسخين، أو "المتبرّعين" بشكلٍ أدقّ قسراً ورجماً عنه، مع المحاولات والجهود الحثيثة المبذولة لتشتيتهم على هذا الأساس، كي يعتادوا على العدميّة ويدركوا الغاية التي استنسخوا من أجلها؛ وهي الاستكمال - التّعبير الملطّف عن الموت - ويتركوا خلفهم كلّ مواهبهم التي برعوا بها، كالموسيقا وكتابة الشعر والرياضة.

وقد عبّر أيضًا الروائي بينيديكت ويلز عن هذا الإيمان بالاحتمالية من الوجهة البيولوجية في روايته "عقري"، إلى حدّ ما"، وهي الرواية التي سندرسُ نسقَ الاحتمالية فيها باستفاضة، وفيما يلي ملخصها:

ملخص رواية "عقري"، إلى حدّ ما" لبينيديكت ويلز

هي قصةٌ حقيقيةٌ كما ذكرَ بينيديكت ويلز، كاتبُ الرواية، في آخرها. جرت أحداثُها في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكية، وتدورُ حولَ صبيٍّ يُدعى فرانسيس يبلغُ من العمرِ سبعةَ عشرَ عامًا، لم يعرف والدَه أبدًا، ويعيشُ مع والدته التي تعاني من الاكتئابِ وأمراضٍ نفسيةٍ أخرى، في منزلٍ متنقِّلٍ بانسٍ على مشارفِ مدينةِ كليمنت الصَّغيرة على السَّاحلِ الشرقيِّ في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيَّة.

تتركُ والدَةُ فرانسيس خطابًا له قبلَ محاولةِ انتحارٍ فاشلةٍ، تكشفُ فيه أنَّه خُلِقَ بفضلِ بنكِ الحيواناتِ المنويَّة، حيثُ يتمُّ اختيارُ متبرِّعينَ رجالٍ مجهولينَ لديهم معدَّلُ ذكاءٍ عالٍ استثنائيٌّ. وبعدَ معرفته هذا السِّرَّ، ينطلقُ في رحلةٍ للبحثِ عن والدِه دونَ أن تكونَ لديه أدنى معلومة عنه، فيجوبُ الولاياتِ المتحدةَ الأمريكيَّةَ برفقةِ صديقه المقربِ جروفر شيدويك، وفتاةٍ أخرى كانت متواجدةً في العيادة التي تقيمُ فيها والدته، آن ماي جاردنر، فيقعُ في حبِّها أثناء رحلته معها.

يزورُ فرانسيس خلالَ رحلته كلاً من نيويورك، ونيوجيرسي، وبنسلفانيا، ولاس فيجاس؛ مدينة أحلامه بسببِ القمار، وسان فرانسيسكو، ولوس أنجلوس، وغيرها، لكنَّه يكتشفُ في النِّهاية أنَّ والدَه البيولوجي ليسَ عقريًّا ولا صلةَ له على الإطلاقِ بالعاقرة، حيثُ قدَّم لبنكُ الحيواناتِ المنويَّة أوراقًا زائفةً، كشهادةٍ تخرُّجٍ من هارفرد، وأوراقَ حيازته على جوائزٍ علميَّة، وغير ذلك، كما أنَّ له عشراتِ الأبناء الذين وُلِدوا بهذه الطَّريقة، وكانَ يحصلُ مقابلَ كلِّ منهم على خمسةِ آلافِ دولار.

بعدَ هذا الاكتشافِ، نَقَمَ فرانسيس على حياته بشكلٍ أكبر، إذ كانَ يعوِّلُ على والدِه العقريِّ لينتشلهم من حياةِ الفقر، إلَّا أنَّ هذا الأبَّ كانَ قذرًا لا يعرفُ النِّظافة، وليسَ ذكيًّا، ولا يحملُ أيَّ شهادةٍ، ويعيشُ في المكسيك، في حيٍّ مليءٍ بالعصاباتِ والأسلحةِ والمخدراتِ، ما جعلَ فرانسيس يخرجُ من عنده مثقلًا باللَّوعةِ

والألم، مفكراً في تحقيق حلمه الآخر، وهو الذهابُ إلى لاس فيغاس ليلعبَ الرّوليت؛ إذ رأى أنَّ حياته لا يمكنُ أن تكونَ أكثرَ من حظٍّ عبثيٍّ ليسَ أكثرَ، وكما كانَ دوستويفسكي يلعبُ القمارَ معتقداً أنَّه المكانُ الوحيدُ الذي يستوي فيه الأغنياءُ والفقراءُ، فعلَ فرانسيس المثلَ، وأرادَ أن يحققَ مزيداً من الأرباحِ، مزيداً من المالِ، وكانَ همُّه أن يصبحَ مليونيراً.

وبالفعلِ، ذهبَ فرانسيس إلى لاس فيغاس مرّةً أخرى، إذ خسرَ في المرّةِ الأولى، وبقيَ يلعبُ هناكَ ويضاعفُ أرباحه حتّى جاءتِ اللَّحظةُ الحاسمةُ، لحظةُ الحصولِ على المليون، وانتهتِ الرّوايةُ قبلَ أن يُكشفَ فيما إذا حصلَ على ذلكَ أم لا، تاركاً الخيارَ للقارئِ كي يملأَ هذا الفراغَ.

نسقُ الحتميّةِ في الأدبين الأمريكيّ والأوروبيّ

إنَّ أيَّ قارئٍ للرّوايةِ يمكنه أن يدركَ المعضلةَ الكبيرةَ التي أرادَ الأديبُ إِبصالتها للقراءِ، وهي فرضُ العبقريةِ كحتميّةٍ. ولم يأتِ الأديبُ بفكرةِ بُنوكِ الحيواناتِ المنويّةِ للعباقرةِ من لدنِ خياله، بل هي قضيةٌ واقعيّةٌ اشتهرت في أمريكا معَ مطلعِ ثمانينياتِ القرنِ الماضي، حيثُ أنشأ عالمُ الوراثةِ، الحائزُ على نوبل في الطبِّ عام ١٩٤٦، هرمان جوزيف مولر، معَ زميله عالمِ الوراثةِ المليونير روبرت كلارك جراهام، بنكاً للحيواناتِ المنويّةِ التي أُخذتِ من العباقرةِ من أجلِ تخصيصِها في أرحامِ النّساءِ؛ لتحسينِ النّسلِ وخلقِ أجيالٍ عبقريةٍ. وقد بدأ هذا البنكُ عام ١٩٨٠ في ولاية كاليفورنيا، تحتَ اسمِ "مستودع هريمان ج مولر للأجنةِ المختارةِ" أو "Hermann J. Muller Repository for Germinal Choice"، وكانَ يستقطبُ الحائزينَ على جائزةِ نوبل، أو المرشّحين لها في بعضِ الأحيان^١ من أجلِ التّبرّعِ بالحيواناتِ المنويّةِ دونَ الإفشاءِ عن أسمائهم، غيرَ أنَّ أسمَ أحدهم عُرِفَ، وهو عالمُ الفيزياءِ الحاصلُ على نوبل عام ١٩٥٦، ويليام برادفورد شوكلي.

^١ Graham, Robert Klark. "The Repository for Germinal Choice: Orthogenetics-The Optimization of Heredity and Environment." Mankind Quarterly 26.3 (1986): 265.

وإنَّ نظرةً عجلَى على فكرةِ هذا البنك، تعيُننا إلى الإشكاليَّاتِ النَّسَقِيَّةِ التي ناقشناها في الفصلِ السَّابِقِ، المتمحورة في إشكاليَّةِ الهُويَّةِ عموماً، والعرقيةِ خصوصاً، وذلك أنَّ فكرةَ هذا البنك لم تكن قائمةً على إنجابِ العباقرِ فقط، وإنَّما وضعت سماتٍ وخصائصَ محدَّدةً لهم، من بينها كما أشار جراهام "سينتجُ البنكُ أطفالاً بيضاً أذكىاء قويين مثاليين من النَّاحيتين العصبيَّةِ والجسديَّةِ"، وليست هذه الفكرةُ حديثةً أو مبتكرةً، بل كانَ ذلكَ أيضاً ما تسعى إليه النَّازيَّةُ، إذ حاولَ هتلرُ الإبقاءَ على الوسمين الأذكىاء البيض، وإقصاءَ كلِّ من لا يحملُ الموصفاتِ التي حدَّدتها النَّازيَّةُ. بل إنَّ هذه الفكرةَ متأصِّلةٌ في النَّفسِ عموماً منذ الأزل، إذ حملها - كما تشير المرويَّاتُ الدينيَّةُ - إبليسُ حينَ حَفَرَ آدَمَ واستطاعَ إقصاءَهُ من الجنَّةِ لأنَّه رأى في جنسِهِ سمواً وشرفاً ليس في جنسِ آدَمَ مثله، وكذلك فعلَ قابيلُ مقصياً أخاه هابيلَ بالقتلِ لأنَّ الربَّ وفقاً للمرويَّاتِ الدينيَّةِ تقبَّلَ قريانَ هابيلَ دونَ قريانِ قابيل. واستمرَّت هذه النَّزعةُ الإقصائيَّةُ في النَّفسِ البشريَّةِ معَ تقدُّمِ الزَّمنِ ولم يسلم منها جنسٌ بشريٌّ أو أُمَّةٌ من الأممِ على الإطلاق، وهنا يمكننا أن نقسمها إلى قسمين اثنين؛ أولهما غيرُ حضاريٍّ، والآخرُ عكسه. أمَّا النَّمطُ الأوَّلُ فهو الذي سادَ في القرونِ الغابرةِ، على أشكالٍ وأنواعٍ شتى، كالإقصاءِ المعرفيِّ، إذ كانت كلُّ أُمَّةٍ تدَّعي نشأةً علمٍ من العلومِ على يديها، كالإشكاليَّةِ بينَ الصِّينيِّينَ والإغريقِ والعربِ على صنعِ البوصلةِ، أو إشكاليَّةِ الهندسةِ والحسابِ بينَ الفراعنةِ واليونانيِّينَ، وغيرها، وهناك أيضاً الإقصاءُ العرقيُّ، إذ حُتِّمَ على سُودِ العربِ أن يكونوا عبيداً وإماءً عندَ بيضهم، مهما بلغت بهم العزَّةُ والأنفَةُ والشَّجاعةُ، ومهما حَسُنَ لسانُهم وأبدعَ يراعُهم، فإن كانوا سوداً، هم إذن عبيدٌ، ولا أدلَّ على ذلكَ من عنترَةَ بنِ شدَّاد؛ الشَّاعرِ الذي أُسطرتْ شجاعتهُ، والذي لم ينلَ حرَّيتهَ إلَّا اسماً، كما كانَ أيضاً وحشيٍّ، الذي قتلَ حمزةَ بنَ عبدِ المطلبِ أملاً في نيلِ الحرِّيَّةِ والجلوسِ بشكلٍ عزيزٍ كريمٍ معَ باقي القومِ، إلَّا أنَّ لونه أبقى على صفةِ عبوديَّتهِ، ولم يتحرَّرَ كذلكَ إلَّا اسماً، رغمَ حيازتهِ المالِ والمجوهراتِ النَّفيسةِ، لكنَّه معَ ذلكَ ظلَّ دنيئاً في قومه حتَّى أسلمَ فلم يفرَّقِ المسلمونَ بينَ أبيضٍ وأسودَ.

¹ <https://www.smithsonianmag.com/smart-news/nobel-prize-sperm-bank-was-racist-it-also-helped-change-fertility-industry-180963569/>

ورغم أنَّ العربَ تخلَّصوا من الإقصائيةِ العرقيةِ إلى حدٍّ كبيرٍ بعدَ إسلامهم، إلَّا أنَّ هذه الآفةَ استمرَّت في أماكنٍ أخرى وفي قرونٍ متقدِّمةٍ إلى حدٍّ ما، كما هو الحالُ في الولاياتِ المتَّحدةِ الأمريكيَّةِ، إذ لم يكن يُنظرُ إلى السَّودِ سوى أنَّهم عبيدٌ ممنوعون من التَّعليمِ وممارسةِ الحياةِ بشكلٍ كريهٍ، وما تزالُ تُمارَسُ عليهم الضَّغوطاتُ بشكلٍ أو بآخرٍ إلى الآن، رغمَ المفاهيمِ المسطَّحةِ التي أُطلقتَ للحدِّ من العنصريَّةِ، كالنَّوعِ "Diversity" وتكافؤِ الفرصِ، وغير ذلك من المسمَّياتِ التي لم تثبتِ إلَّا لإغلاقِ مثلِ هذه الثَّغراتِ، وبقيتِ مسمَّياتٌ لغويَّةٌ لم تُطبَّقْ، ومفاهيمٌ مدمِّرةٌ لذاتها، إذ لو سادَ العدلُ وأخذتِ الدِّيمقراطيَّةُ مجراها، لُفُتَتِ هذه المفاهيمُ في مكانها، إلَّا أنَّها ما زالت باقيةً، وكلَّما تُعني بها أكثرُ لإظهارِ أنساقٍ سطحيَّةٍ كالعدلِ والدِّيمقراطيَّةِ، كشفت تحتها عن أنساقٍ مضمرَّةٍ تُظهرُ عوَارَ تلك السَّطحيَّةِ وتُفسِّلُها.

أمَّا القسمُ الثَّاني من النِّزعةِ الإقصائيَّةِ؛ فقد اكتسبَ سِمَتَه الحضاريَّةَ من إمكانيَّةِ تبريره لفظيًّا والمفاوضةِ عليه ومحاولةِ الإقناعِ به، كالحروبِ على سبيلِ المثالِ لا الحصرِ، فلا يختلفُ اثنانٍ على كارتيتها وسلبيتها بسببِ إزهاقها الأرواحَ، حيثُ تكشفُ صحيفةُ نيويورك تايمز أنَّ تَقديراتِ الوفياتِ في الحروبِ عبرَ التَّاريخِ تصلُ إلى ألفِ مليونٍ (مليار) شخصٍ¹، وإذا نظرنا بعمقٍ إلى سببِ هذه الحروبِ، سنجدُ سببًا واحدًا، ألا وهو إقصاءُ الآخرِ، ولكن، معَ النُّسوجِ الفكريِّ واختراعِ المفاهيمِ الحديثةِ، بُرِّرتِ هذه الحروبُ بالأمنِ والأمانِ ودفعِ البلاءِ وحمايةِ الحدودِ، غير أنَّ نظرةً على الوضعِ العالميِّ يمكِّننا من رؤيةٍ أنَّ من يتملَّونَ بمثلِ هذه المبرراتِ هم ذاتهم من صاغوا مفاهيمَ السَّلامِ العالميِّ، وهم أنفسهم أيضًا من يدعمونَ الحروبَ بشكلٍ خفيٍّ، أو "من تحتِ الطاولةِ"، وما زالتِ هذه الحروبُ المبرَّرةُ بطريقةٍ ما مندلعةً إلى اليومِ، فنُدعِمُ إسرائيلَ بحجَّةٍ أنَّ اليهودَ لهم حقُّ العيشِ معًا في دولةٍ واحدةٍ تأويهم، دون أن يبالي أحدٌ بعملياتِ القتلِ والتَّهجيرِ والنَّهبِ والسَّلبِ والتَّخريبِ التي حدثت في النِّكبةِ عام ١٩٤٨، فضلًا عن الإعداماتِ اليوميَّةِ التي تُرتكَبُ بحقِّ الفلسطينيين، بحجَّةٍ دينيَّةٍ ومبرِّرٍ تلموديٍّ أو تورانيٍّ، فنظرَةُ اليهوديِّ لآخرٍ في التلمودِ أنَّ "أرواحَ اليهودِ تتميَّزُ من باقي الأرواحِ بأنَّها جزءٌ من الله كما أنَّ الابنَ جزءٌ من والده، أمَّا الأرواحُ غيرُ

¹ <https://www.nytimes.com/2003/07/06/books/chapters/what-every-person-should-know-about-war.html?smid=url-share>

اليهودية فهي أرواح شيطانية وشبيهة بأرواح الحيوانات^١، ولا مشكلة في قتلها بما أنها ليست من شعب الله المختار، دون أن يكون هناك فرق بين رجل أو امرأة أو رضيع وصولاً إلى الحيوانات، إذ جاء في الإصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الأول: "فَالآنْ أَذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلَا تَعْفُ عَنْهُمْ بَلْ أَقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلاً وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا"^٢. أمّا من يحمي اليهود ونظرتهم، فهي الولايات المتحدة الأمريكية، التي تتغنى الآن بأنها زعيمة العالم الحرّ، والنموذج الأمثل للديمقراطية والمساواة، وهي ذاتها التي عملت على إفناء الهنود الحمر في سبيل احتلال الأرض، وهنا تبرز الدوافع النفسية، فمن قضى على الهنود الحمر يدعم القضاء على الشعب الفلسطيني، ومن قدّم مليوناً ونصف مليون شهيد من أجل الحرية ما زال يدعم الصمود الفلسطيني.

ومن الأشكال الإقصائية التي عبّرت عنها الروايتان؛ الأوروبية والأمريكية، الإقصاء الجندي الذي يتمثل في ثلاثة محاور؛ وهي إقصاء المرأة في الروايات الذكورية، وإقصاء الرجل من الأدوار الإيجابية في الروايات النسوية، وإقصاء الجنسين في الروايات المثلية (LGBT Novels)، ويمكننا أن نتمثل النوع الأول في رواية "A Little Life" لهانيا ياناغيهارا^٣، التي أقصت المرأة بشكل واضح، فجعلت من أبطال الرواية الأربعة ذكوراً، ولم تكشف عن أي دور للمرأة مهما كان بسيطاً، وبخاصة أنها جعلت أبطالها كلهم تقريباً مثليين، ومن النقاط المهمة أيضاً في الرواية، والتي يمكن أن تفيد دراستنا لنسق الحتمية، أن أحد أبطال الرواية، وهو جود، حدّد قدره مسبقاً، وحُتمّ عليه الموت في نهاية الرواية، إذ لم يستطع أن يتأقلم مع ندوب الماضي وجروحه التي لم تندمل، حيث تركه والده رضيعاً داخل كيس قمامة محشوّ بقشر البيض والخس المتعفن والمعرونة الفاسدة في أحد الأزقة خلف صيدلية^٤، فتكفّل الرهبان بتربيته، ولكنهم في الوقت

^١ نصر الله، يوسف: الكنز المرصود في قواعد التلمود، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٧، ص ٧١.

^٢ العهد القديم: سفر صموئيل الأول، الإصحاح ١٥، العدد ٣.

^٣ روائية أمريكية وُلدت عام ١٩٧٥ في لوس أنجلوس، لها ثلاث روايات، آخرها عام ٢٠٢٢ بعنوان "To Paradise"، وقد رُشحت روايتها المذكورة في الدراسة في القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر عام ٢٠١٥.

^٤ Yanagihara, Hanya. "A little life". Pan Macmillan, 2015, p.142.

ذاته كانوا يعتدون عليه جنسياً^١، وبعد هربه مع الأخ لوقا، قام الأخير باستغلاله جنسياً وجعله عبداً للجنس مقدماً الخدمات لزبائن من الذكور^٢، ثم تلقى إصابة خطيرة تسببت له بتلف دائم في العمود الفقري؛ أي إن حياته كانت جحيماً، ثم تعرّف إلى رجل يدعى كاليب وأقام معه علاقة عاطفية، ولكنه ما لبث إلا أن عذبه وضربه وأهانته واصفاً إياه بالضعيف العاجز^٣، ثم عاد إلى أحضان أحد أصدقائه من أبطال الرواية، ويليام، ولكن الأخير مات جرّاء حادث مروري، ما سبّب صدمة نفسية أخرى لجود، حتى انتحر في النهاية كما ورد على لسان هارولد الذي تكفّل بسرد الفصل الأخير^٤. ولكن عودة إلى الوراء في الرواية، نجد أن جود لم يحاول الانتحار مرةً فقط؛ أي المرة التي توفي فيها، بل حاول عشرات المرات حتى اعتاد على الأمر، ما ترك ندوباً دائمة في يده بسبب تعدّد المحاولات^٥. كما نلاحظ في هذه الرواية بروز نسق الحتمية بشكل واضح وجلي، إذ أبانت عن نمط التفكير الأمريكي في مثل الحالة التي عاشها جود، فلا سبيل لخلاصها إلا عبر الموت والانتحار. لقد حُتم ذلك على مثل هذه الشخصيات التي عاشت في عذاب دائم مستمر، بل يمكننا أن نقول إن شخصيته ولدت ميتة أصلاً، مذ تركه والداه في كيس قمامة في أحد الأزقة. ولم تخف كاتبة الرواية هذا الأمر في إحدى مقالاتها عن الرواية، حيث قالت بشكل واضح ومباشر: "أحد الأشياء التي قصدت فعلها في هذا الكتاب، هو خلق بطل لا يتعافى على الإطلاق"^٦، أي خلق بطل رواية حُتم عليه البؤس والشقاء طوال حياته، وهو ما كان بالفعل، إذ لم يكن بمقدور البطل أن يتخطى أزمة نفسية حتى تبرّر له أزمة أخرى تنقل كاهله، ما أدّى به في النهاية إلى الانتحار بعد إدراكه أن حياته لا تساوي شيئاً.

¹ A Little Life, p.355.

² Ibid, p.407.

³ Ibid, p.384.

⁴ Ibid, p.680.

⁵ A Little Life, p.410.

⁶ <https://www.vulture.com/2015/04/how-hanya-yanagihara-wrote-a-little-life.html?regwall-newsletter-signup=true>.

أما الشكل الثاني من الإقصائية الجندرية؛ إقصاء الرجل من الأدوار الإيجابية في الروايات النسوية، فيمكن أن نتمثله في رواية "Vox" للأديبة كريستينا دالتشر^١، حيث تتحدث عن معاناة سيدة تدعى جين مكليان، وهي أم وعالمة لغوية عصبية، بعد قرار أصدره أحد الوزراء يقتضي بإرسال النساء إلى المنازل للطهي والتنظيف وعدم التحدث؛ رائيًا في ذلك حلًا وعلاجًا للشرور المختلفة والأزمات التي تفتت داخل المجتمع الأمريكي، وبناءً عليه، تم وضع جهاز في الرسغ الأيسر ليد كل امرأة يحسب عدد الكلمات التي تنطقها يوميًا، مع التأكيد على ضرورة عدم اجتياز المائة كلمة وإلا عوقبت المرأة^٢. ويزداد قلق الأم حين ترى ابنتها المراهق ستيفن عائداً في أحد الأيام إلى المنزل مرتدياً دبوساً يحمل حرف "P"، ما يعني أنه انغمس في معتقدات حركة الرئيس، معتقداً أنه يفعل الصواب. وفي لحظة ما، أرسل صديقته إلى السجن بعد ممارسة الجنس معها، إذ يُعدّ الجنس قبل الزواج وفقاً لتلك الحركة أمراً غير قانوني، ولكنّ المعاقب الوحيد على هذا الفعل هو المرأة^٣، أما الرجل فلا بأس عليه.

يتم استدعاء جين بصفتها عالمة اشتهرت بعملها على مصلٍ لعلاج الحبسة الاستقبالية^٤، لعلاج شقيق الرئيس الذي تعرّض لحادثة تزليج تسببت له بتلف في الدماغ أدّى إلى اضطراب النطق، ورغم أنه يتحدث بطلاقة وسلاسة إلا أنه يجمع الكلمات في جملٍ لا معنى لها^٥.

تبدأ جين بتحضير المصل في المختبر، ولكنها تكتشف أنّ الرئيس يريد عكس تركيبته ليصبح سلاحاً بيولوجياً يستخدمه ضدّ أفراد بلده، فتصمّم على وضع خطة لإزاحة الرئيس من خلال إعطائه وكبار مستشاريه المصل ذاته، وفي خضمّ الفوضى التي تلحق ذلك، تتم إزالة عادات الكلمات ويتم انتخاب شخصٍ جديدٍ للرئاسة مع تعهده بإعادة أمريكا إلى ما كانت عليه.

^١ هي عالمة لغوية وأديبة أمريكية، حازت على عدد من الجوائز عن رواياتها، كما أن روايتها "Vox" كانت من الكتب الأكثر مبيعاً وفقاً لصنداي تايمز.

^٢ Dalcher, Christina. "Vox". Nil, 2018, p.23.

^٣ Dalcher, Christina. "Vox". Nil, 2018, p.65.

^٤ هي مشكلة في النطق، ومن أعراضها قصور في فهم وتقبّل اللغة المكتوبة والمنطوقة، بالإضافة إلى ضعف في استرجاع الكلمات المرغوب قولها، وصعوبة التحدث بطلاقة وإنتاج المصطلحات، علماً أنّ المصابين يعانون هذا الخل.

^٥ Dalcher, Christina. "Vox". Nil, 2018, p.46.

لقد حاولت هذه الرواية أن تظهر حجم المأساة التي تعيشها المرأة في الدولة التي من المفترض أنها الأكثر ديمقراطية وحرية في العالم، إذ ما زالت المرأة ضحية لمخالب الرجل الذي يسعى دومًا إلى إسكاتها قسرًا وغضبًا، وإرسالها لتتولى الشؤون المنزلية من طبخ وتنظيف وغير ذلك من المهام التقليدية، بعيدًا عن مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وسواها من المظاهر التي أضحت تُعد إشارة إلى التطور والتحضّر.

أمّا الشكل الأخير من الإقصاء الجندري، الذي يتمثل في الروايات المثلية، فقد أوضحناه في الفصل السابق من هذه الدراسة، والإشكاليات العقيمة والمعضلات الدائرية التي سببتها ولا حل لها.

إنّ المشترك في تلك النظرات الإقصائية جميعها، هو نسق الحتمية، وتحديد قدر الإنسان قبل ولادته، فما دمت أسود، فإنّ العبودية محتمة عليك، وما دمت غير يهودي فلا مشكلة بقتلك، وإن لم تكن أمريكيًا أصيلاً فلن ترى الحرية والديمقراطية، وإن كنت رجلاً فإنّك السيّد الأوّل والأمرُ النّاهي المطاع وإن كنت امرأة فقد حُتمّ عليك العيش بلا كرامة ولا حقوق. وفي سياق رواية "عبري" ... إلى حدّ ما، إن لم تكن أبيض عبقرًا فلا حاجة لك، وعلى هذا الأساس يتم اختيار الحيوانات المنوية في بنوك العباقة، وعليه أيضًا تتم الهندسة الجينية للأفراد قبل أن يولدوا.

كان يُفترض بالتكنولوجيا الحديثة أن تدعم الإنسان وتسهّل عليه الكثير من تعقيدات الحياة، وهو ما حدث بالفعل، إذ لها إيجابيات لا تُعدّ ولا تُحصى، لعلّ أبرزها أنّ أبعد نقطة على سطح الأرض أصبحت على مرمى العين من خلال الشبكة العنكبوتية أو المستحدثات التكنولوجية المساعدة، إلّا أنّ هذا النسق الظاهر يخبئ أيضًا نسقًا مضمّرًا عكسيًا لذلك الظاهر؛ وفي رواية "عبري" ... إلى حدّ ما يتجسّد هذا النسق المضمّر في أنّ العلماء أصبحوا يحاولون لعب دور الأرباب، سواء من خلال استنساخ البشر، كما هو الحال في رواية "لا تدعني أرحل أبدًا"، أو من خلال تحديد أقدارهم وسماتهم وشخصياتهم، كما هو الأمر في رواية "عبري" ... إلى حدّ ما، ففرانسيس، بطل الرواية، وقع ضحية للتلاعب من قبل والدته التي

تبحث عن أيٍّ مجدٍ وثرءٍ ماديٍّ، وهي بدورها كانت ضحيَّةً لبنوكِ الحيواناتِ المنويَّةِ التي ادَّعت أنَّها أرسلت لها حيواناتٍ منويَّةً لأستاذٍ جامعيٍّ، حاصلٍ على الدَّكتوراةِ في الكيمياءِ العصبيَّةِ من جامعةِ هارفارد، ويحملُ معدَّلَ ذكاءٍ "١٧٠" أي أعلى من أينشتاين بخمسيِّ درجاتٍ، وهو أيضًا رياضيٌّ غيرُ مدخِّنٍ، ويعزفُ الكمان^١. لقد كانت والدَةُ فرانسيس تسعى إلى التَّقرُّبِ من الأثرياءِ لأنَّها تحلمُ بمستقبلٍ أفضل^٢، قبل زواجِها من رايان الثريِّ - وذلك حين أنجبت فرانسيس - وبعد طلاقِها منه، وهي تؤكِّدُ بذلك نسقَ الحتميَّةِ الذي يعيشُ في العقليَّةِ الأمريكيَّةِ، فهي تدركُ باطنيًّا أنَّها لم تُخلَقْ، أو لم تولدْ بالإمكانيَّاتِ الكافيةِ لتصنَعِ قدرها بنفسِها، أو لتصنَعِ نجاحَها من خلالِ الأمورِ الطَّبيعيَّةِ التي يجدرُ بالمرءِ فعلُها، كالدراسةِ والعملِ المتواصلِ والكدِّ والجهدِ؛ للوصولِ إلى نقطةِ الهدفِ؛ ولهذا السَّببِ قرَّرت أن تتعاملَ مع قضيَّةِ الوصولِ إلى أهدافِها وأحلامِها وتحقيقِ آمالِها وطموحاتِها، بالطَّريقةِ ذاتِها التي تدركُ من خلالها سيرورةَ الحياةِ، وهي قضيَّةُ الحتميَّةِ، بمساعدةِ المستحدثاتِ التَّكنولوجيَّةِ، فلجأت إلى بنوكِ الحيواناتِ المنويَّةِ واختارت رجلًا وسيماً، عالمًا في الكيمياءِ العصبيَّةِ، حاصلًا على الدَّكتوراةِ بامتيازٍ مع مرتبةِ الشَّرفِ، عازفًا على الكمانِ؛ أي إنَّه مؤهَّلٌ وقد حُتِّمَ عليه النَّجاحُ، إنَّه أمرٌ جينيٌّ صرف، وهكذا أرادت لابنها أن يتمتَّعَ بجيناتِ والدِه ويُحتَمَّ عليه النَّجاحُ أيضًا؛ كي ينتشلَها من ظلماتِ حياتِها نحو رغدِ العيشِ الهانئِ؛ ولذلك لم تستوعب والدُّته قولَه إنَّه سيخرجُ من المدرسةِ للذهابِ إلى الحربِ، وقالت له: "ألا تفهمُ؟! إنَّكَ قادرٌ على فعلِ أفضلِ من ذلك كُلِّه، وليسَ لديكِ الحقُّ في إضاعةِ إمكانيَّاتِكَ بهذه الطَّريقةِ"^٣ لقد كانت والدُّته متأكَّدةً حتمًا أنَّ الحيواناتِ المنويَّةِ التي خُصِّبت بها ستجعلُ من ابنِها شيئًا عظيمًا، حيث لا تحتاجُ بعْدَه إلى رجالٍ آخرينَ يستغلُّون جسدَها وتستغلُّ مآلهم لتحيَا حياةً كريمةً ماديًّا.

¹ Presque genial, p.90.

² Presque génial, Slatkine & Cie, 2020, p.20.

³ Presque genial, p.73.

وقد شاعت هذه النظرة النفعية التبادلية بين المال والجسد في المجتمعات الأوروبية والأمريكية متكئة على نسق الحتمية، متخذة إياه مبرراً وتعليلاً لها، ففي اعترافات العديد من السيدات اللواتي "يعشن من جمالهن"¹ تقول أن ماري: "كان والدي في حالة سُكْرٍ، ويضريني أنا وأمِّي على الدوام ... هربتُ من المنزل إلى صديقتي أليسون بعد أن وضعت سيخاً حديدياً ساخناً للغاية على مؤخرة والدي بعد رؤيته يجلس فوق والدتي خانقاً إيّاها ... وخلال السنوات الأولى كنت أتنقل بين منزل أليسون وأقاربها ومنزل أصدقائها، وكنت أحظى بعلاقات فاشلة للغاية، أي إنَّ حياتي كانت تتجّه نحو الهاوية ... فقدت الاتصال بوالدتي، وبدأت أشعر باليأس حول المال، وكانت أليسون متخلّفة عن الإيجار والعديد من الفواتير الأخرى، فصرّت أعمل معها في البغاء من أجل المال"²، سيّدة أخرى تُدعى بروجان، قالت في السياق ذاته: "لقد أتيت من خلفية عنيفة ومعادية للغاية ... لم أخطئ أن أكون مومساً، لقد حدث الأمر بشكل فجائي. كنت شابةً حسنة المظهر، وظننت أنني سأجد عملاً في متجر ملابس أو في مكانٍ ما من هذا القبيل، مثل الفتيات الأخريات، كما فكرت أن أصبح ممرضة، ولكن منعنتي إصابتي بالدوار بسبب رؤيتي للدماء من ذلك ... وفي السابعة عشرة من عمري، قام والدي بضربي لأنني أدخن، وهدّد بقتل إحدى صديقاتي حين أتت للمنزل، ولكنني صرّت أَسْلَلُ إلى الخارج معهنّ، وأتجوّل في الحانات والفنادق التي يعمل فيها المومسات، وقد كنّ يرتدين دوماً ملابس براقّة وجديدة، ما جعلني أشعر بالغيرة قليلاً؛ لأنني كنت أعمل بدوام جزئي في محلات بيع الصحف، وكنت مفلسة دوماً، ومن هنا بدأت مسيرتي في البغاء"³.

إنَّ هذا الواقع اليومي الذي تحدّثت عنه هاتِه السيدات، مُثِّلَ في الأدب الأوروبي أيضاً، وكتبَ حولَ هذا النسق أهمُّ الأدباء الأوروبيين على الإطلاق، حيث صوّروا العلاقة الحتمية بين طفولة المرء التّعيسة، أو حياته غير الموقّعة، مع الحاجة إلى المال، والعمل في البغاء من أجل لقمة العيش، أو التمتّع بلذائذ الحياة؛

¹ تعبير مستعار من رواية "الجريمة والعقاب" لدستاييفسكي.

² Davies, Julian. "Hookers Candid Confessions of Real Call Girls", Milo Books LTD, England, 2011, p.4.

³ Ibid, p.9.

فبرّر أولئك الأدباء هذه النزعة الجنسية المنحرفة بناءً على شظف العيش وصعوبته؛ أي تأسيساً على الحتمية والظروف الاقتصادية والاجتماعية التي فُدرت على الشخصيات التي تعمل في البغاء.

لا تخفى على دارسٍ للأدب الروسي قيمةُ دسْتاييفسكي^١ الكبيرة والعظيمة لدى النقاد والفلاسفة والروائيين أنفسهم، مثلُ الفيلسوف الألماني نيتشه الذي قال: "دسْتاييفسكي هو عالم النفس الوحيد الذي تعلمتُ منه شيئاً ما، إنّه أروعُ ضربةٍ حظّ في حياتي، أكثر من اكتشافي لستاندال، إنّه الإنسان العميقُ الذي كان الحقُّ معه بأضعافٍ عشر مراتٍ أكثر من الكثير من الألمان السطحيين^٢".

وفي روايته الخالدة "الجريمة والعقاب"، يؤكّد الأديبُ الروسيُّ على نسقِ الحتمية، حيثُ تتحدثُ الروايةُ عن طالبٍ سابقٍ يُدعى راسكولنيكوف، ارتكبَ جريمةَ قتلٍ بحقِّ صاحبةِ العمارة التي يعيشُ فيها، مما أدّى إلى عقابٍ مستمرٍّ ومتواصلٍ لذاته، بالإضافة إلى حمى مرضيةٍ تصيبه كلما تحدّثَ أحدهم عن الموضوع أمامه.

لاحقاً، يتعرّف إلى الفتاة المسكينة سونيا التي اضطرّها شظفُ العيش أن تعملَ في البغاء مقابل المال، حيثُ كان والدها موظّفاً مطروداً من العمل، وهو سكّيرٌ يداومُ على الخمرِ يومياً، ولها أخواتٌ صغارٌ، أما زوجةُ أبيها فمريضةٌ بالسل.

وقد أجبرتِ الحياةُ سونيا على أن تعملَ في البغاء لتوفّر قوتَ العائلة، فضلاً عن النقود التي يجبُ دفعها لصاحبةِ العمارة التي يسكنون فيها، حيثُ كانت تهدّدهم يومياً بالطرد.

^١ هو واحدٌ من أهمّ الأدباء الروس على مرّ التاريخ، الذين أثّروا في الأدب والفكر العالميّ كلّهُ. ولّد عام ١٨٢١ وتوفّي عام ١٨٨١، ومن أشهر أعماله: الإخوة كارامازوف، التي قالَ فيها فرويد في مقالته "Dostoevsky and Parricide": "الإخوة كارامازوف هي أروعُ رواية على الإطلاق، وهي إحدى العلامات على الذروة والقمة الأدبية في العالم".

^٢ Nietzsche, Friedrich. "Twilight of the Idols, trans. Richard Polt." Hacket Publishing Company, Cambridge, 1997. p.80.

إنَّ سونيا شابةً بريئةً مُشفقةً ومضحيةً بنفسها من أجل والدها السكير وزوجة أبيها الشريرة^١، وعمِلت بشكل سيءٍ من قِبَل زوجة أبيها، حتى أنها كانت تضربها لمجرد أنها بكت من الجوع^٢ ولذلك كانت شديدة النحول إلى درجة أنه يُهَيِّئُ للناظر إليها أن يدها شفافةً وأصابعها كالأموات^٣ ولم تصب حظاً من التعليم، وقد تعلّمت ذاتياً بعض التاريخ وبعض الفيزيولوجيا، كما أنها عملت عند مستشار الدولة كلويستوك حيث خاطت له خمسة عشر قميصاً من الحرير الهولندي، لكنه لم يعطيها أجرها وطردها شرّ طردة، ووصفها بأبشع النعوت^٤.

إنَّ دستاييفسكي لا يرى في هذا النوع عاهرات، بل يراهن ضحايا للمجتمع، وضحايا للفقر الذي سيطر على حياتهن ومنعهن من أهم الحقوق والغرائز الواجبة للعيش، كالطعام؛ ولذلك نجده يتعاطف معهن بشكل كبير، بل ويسبغ عليهن الصفات الحميدة كالنقاء والاحتشام والخجل؛ لأنه في قرارة نفسه متأكد أن الظروف هي التي تحكمت فيهن وجعلتهن يعشن بهذه الطريقة.

ولا يتوقّف الأمر عند مدح سونيا وتبيان خصائصها الفضيلة، بل إنها امرأة متدينة تحمل الصليب معها، وتفقّه الكتاب المقدس، بل ومرشدة دينية، وهي العامل الأكبر الذي جعل راسكولنيكوف يعترف بذنبه ليجد الخلاص، ووعدته بانتظاره بعد خروجه من السجن.

إنّ، نستطيع أن نشير إلى أنّ دستاييفسكي صوّرها بصورةً قدسية، ووجّه رسالةً مجتمعيةً مفادها أنه لولا الفقر لما اختارت سونيا هذه الطريق، ولما امتثلت لها، علماً أنّ الفقر في الكتاب المقدس لا يختلف كثيراً عن البغاء من حيث كونه "معادياً للكرامة الإنسانية ويتعارض مع إرادة الله"^٥ ولا يخفى أيضاً دور الفقر وسلطانه في الأدبيات الأوروبية، مما جعل شكسبير يقول في مسرحيته روميو وجولييت: "فقري هو الذي

¹ Dostoevsky, Feodor. "Crime and Punishment", Translated by: Constance Garnett, Electronically Enhanced Text (c) Copyright 1991, World Library, Inc, 1991. p.33.

² Crime and Punishment, Ibid, p.31.

³ Crime and Punishment, Ibid, p.567.

⁴ Crime and Punishment, Ibid, p.30.

⁵ Gutierrez, Gustavo."Teología de la liberación", Perspectivas. Ediciones Sígueme, Salamanca, 1971. p.165.

وافق، وليست إرادتي^١، وفي رسالتي دستايفسكي وشكسبير تأكيد واضح على أن الإنسان لا يمتلك حريته ولا إرادة الفعل، وإنما هي الظروف والملابسات الأولية التي تشكلهم وتصنع معتقداتهم وأفكارهم وبالتالي طريقة عيشهم.

وفي مثال تأكيدِي آخر لنظرة الأدب الروسي إلى الإرادة الحرة، نرى تولستوي^٢ في روايته البعث يبرز اتجاه ماسلوف إلى البغاء، حيث وُلدت ماسلوف في بيئة تضع الأمهات فيها مولودًا في كل عام، ثم تهجرهم؛ لأنهم جاؤوا "رغمًا عنهن"، إلا أن سيدتي المنزل اللواتي كانت والدته ماسلوف تعمل عندهن، قررتا أن تحتفظا بماسلوف بعد أن فُتِنَ بها^٣. وبعد أن وقع ما وقع بينها وبين نيكليندوف تم طردها من المنزل فذهبت متجولة باحثة عن عمل إلى أن وجدت في مال البغاء مسليًا عنها، حيث اقتنعت بالبغاء بسبب الملابس التي أصبح بإمكانها أن تقتنيها^٤.

نلاحظ أن ماسلوف لم تولد بغيًا بطبيعتها، أو أنها تحب البغاء، ولكن الفوارق التي بين الطبقات جعلت منها تبحث عن المال، بالإضافة إلى أن هذا العمل يسد رمقها.

وفي الحقيقة يمكن لقارئ الرواية أن يستشف أن هناك العديد من الأعمال التي كان من الممكن أن تقوم بها ماسلوف وتبتعد من خلالها عن البغاء، إلا أنها اختارت ما يمكن أن يدر عليها أموالًا كبيرة فضلًا عن إمكانية انتقاء الألبسة الأنيقة التي لم تحلم بها يومًا.

إنَّ الوضع في روسيا في ذلك الوقت كان محكومًا بالطبقية، بالسادة والعبيد، فأرادت ماسلوف أن تنهي وجودها في الطبقة المعتمدة وأن تسمو طبقياً، في سبيل التخلص من العنصرية التي يكنُّها ذوو الطبقات

¹ Shakespeare, William. "Romeo and Juliet", Yale University Press, London, 2004. p.173.

^٢ هو واحد من أهم الأدباء الروس، ولا يقل أهمية عن دستايفسكي، وقد وصلت شهرته ذروتها بروايته "الحرب والسلام". وُلد عام ١٨٢٨، وتوفي عام ١٩١٠.

³ Tolstoy, Leo. "Resurrection", Translated By: Louise Maude, Oxford University Press New York, 2009. pp.8-9.

⁴ Ibid, p.12.

الأرستقراطية تجاه الفلاحين أو العاملين الكادحين، وقد أشارت بيل هوكس^١ إلى أن "الصراع الطبقي يرتبط بشكل وثيق بالكفاح من أجل إنهاء العنصرية"^٢.

ونستشف من الرواية أيضاً، أن الأمر في روسيا يُختزل في جملة واحدة، أكون أو لا أكون، وذلك تبعاً للشكليات المتبعة، والمنظر، والهيئة، والحسب، والنسب، والمال، وما إلى ذلك من أمور لم يتدخل الإنسان في صنعها بشكل حقيقي، وإنما اكتسبها اكتساباً وورثها إلى الجيل الذي يليه من أبنائه الذين ورثوها لأبنائهم. وهذه العملية في حد ذاتها من وجهة نظر إنسانية، عملية اجتماعية ظالمة تسحق الفقير أو الكادح وتجعله يهتم بشؤون حياته الغرزية فقط، كالنوم وسدّ الجوع والجنس، أي يعيش كالبهائم، في حين يهتم ذوو الطبقة العليا بالكتابة والقراءة ويشغلون أرفع المناصب ويلتهون بحياتهم عن العبيد.

أمّا في الأدب الفرنسي، فيمكننا أن نستدل على مثل تلك التمثلات للعلاقة بين الجسد والمال وحتمية الفعل، من خلال عيون هذا الأدب، عبر فيكتور هوجو^٣ وروايته البؤساء، فأجدى شخصياتها فانتين التي وقعت في حب رجل وأخلصت له، وأنجبت منه ابنتها كوزيت، ولكن حبيبها تركها وترك رعاية الابنة للام وحدها، وبعد ذلك وصلت فانتين إلى مونفرماي ومعها كوزيت، والتقت بعائلة تيناردييه وهم أصحاب نُزل وطباعهم فاسدة، وغادرت هي للعمل بعد موافقة العائلة طالما ترسل المال إليهم لتوفير حاجيات ابنتها.

تلخّصت إرادة فانتين كلها في العيش من أجل إبقاء ابنتها على قيد الحياة؛ ولذلك عملت في مصنع، وأحضرت أحدهم ليكتب الرسائل التي ترسلها ويقرأ الرسائل التي تصلها من عائلة تيناردييه التي تربي ابنتها؛ لأنها كانت أمية.

^١ وهو اسم مستعار اشتهرت به الناقدة الأدبية غلوريا جين واتكنز، وهي من أهم دراسات النوع الاجتماعي والنظرية العرقية النقدية. ولدت عام ١٩٥٢، وتوفيت عام ٢٠٢١.

^٢ Hooks, Bell. "Feminist Theory: From Margin to Center", South end Press, U.S.A, 1984. p.3.

^٣ أديب وشاعر وروائي فرنسي، ويعدّ أحد أهم أعلام الأدب الفرنسي، ومن أبرز رواياته: البؤساء، وأحذب نوتردام. ولد عام ١٨٠٢، وتوفي عام ١٨٨٥.

كانت عائلة تيناردييه تطلبُ نقودًا وتكذبُ في طلبها وتبالغُ في طلبِ المساعداتِ الماليةِ لابنتِها، وهذه كانت طريقَتهم الاحتياليةُ الابتزازيةُ للمالِ.

لاحقًا يتمُّ طردُ فانتين من قِبَلِ مشرفِها في العمل، مدام فيكتورنين الراهبة، وذلك بعد أن تكتشفَ أنَّها أمُّ لابنةٍ غيرِ شرعيةٍ، فلا يكونُ أمامها بعدَ البحثِ عن عملٍ إلا أن تعملَ في البغاءِ، وفي إحدى أمسياتِ شهرِ يناير، وكانت قد باعت فانتين بعضًا من أسنانِها وشعرِها من أجلِ إرسالِ النقودِ للاعتناءِ بكوزيت، قامَ أحدهم بمضايقَتِها ورمي التلجِ أسفلَ لباسِها، في ظهرِها، مما جعلَها تنقضُّ عليه وتخمشُه وتشتُمُه، فجاء الشرطيُّ واعتقلَها¹.

ولاحقًا يخرجُها بطلُ الروايةِ جان فالجان من السجن، ويأمرُ بإيصالِها للمشفى، حيث كانت تعاني من السلِّ، ويعدُّها بإحضارِ ابنتِها، إلا أنَّها تموتُ، ويحرصُ جان فالجان على رعايةِ ابنتِها.

نلاحظُ أنَّ فانتين تحملُ من معاني الأمومةِ بشكلٍ كبيرٍ جدًّا، إنَّها السيدةُ المهتمةُ والمضحيةُ بحياتها في سبيلِ ابنتِها. لقد لجأت إلى البغاءِ وامتهنَ البعضَ جسدها ووافقت على ذلكَ بل هي التي اختارته، أو بشكلٍ أدقَّ "الفقر هو الذي وافقَ وليست الإرادة" رغم ما يحمله الأمرُ من نبيذِ اجتماعيٍّ، إلا أنَّ غريزةَ الأمومةِ لديها لم تجعل هذا الأمرَ وغيره من بيعِ أسنانِها وقصِّ شعرِها، أن يقفَ حائلًا أمامَ رعايةِ ابنتِها. هذا ما أرادَ هوجو أن يوصله إلى القراءِ، أنَّ حياةَ المرءِ ليست بين يديه، إذ ليسَ هو من يحدِّدُ بدايتها، ولا هو من يحدِّدُ مسارَها، بل هي الظروفُ والقدرُ الذي حُتمَ على الأفرادِ وجعلهم أشخاصًا منبوذين اجتماعيًا.

لا تتوقَّفُ المنفعةُ التبادليةُ بينَ المالِ والجسدِ عندَ الأعمالِ غيرِ الشرعيةِ التي تحدَّثنا تَوًّا عنها، بل يمكنُ أن تتسرَّبَ هذه المنفعةُ بشكلٍ خطيرٍ إلى منظوماتٍ شرعيةٍ هامةٍ كالزواجِ، فتُبْنى بلا أساسٍ وسرعانَ ما

¹ Hugo. Victor. "Les Misérables", Hachette, Paris, 2003. p293.

تتقوَّض، كما هو الحال في رواية "The Paris Apartment" للأديبة البريطانية لوسي فولي^١، حيثُ أبدأت الحساء الشَّراء دوميْنِك الامتعاَض لزوجها الذي كان يعنُفها ويدفعها بشراسة حتَّى وقعت دوميْنِك على الأرض، واعترفت له أنَّها ما تزوجته إلَّا لماله، قائلة: "إنني لم أهتم به إلَّا بسبب ماله، بالطَّبع لقد اهتممتُ به من أجل ماله فقط، كان ذلك هو الشَّيء الوحيد الذي جعله جديرًا بالاهتمام بالنَّسبة لي، ولكن الآن، إنَّ الأمر فعلاً لا يستحقُّ"^٢، وهكذا تهدَّم ما يُسمَّى "زواجًا" عند أقرب منعطف؛ نظرًا لبنائه على أساسٍ ماديٍّ أوَّلًا وآخرًا، دون وجود أيِّ ارتباطاتٍ والتزاماتٍ أخلاقيةٍ أو عاطفيةٍ على الإطلاق.

نلاحظُ من خلال هذه الوقائع أنَّ العقلية الأوروبية عمومًا والأمريكية تحوُّ إلى التَّصلُّ من المسؤولية وإسناد أفعالها للظُّروف الاقتصادية والاجتماعية التي فُرضت عليها، وكأنَّ ما حدث لاحقًا لا يعدو كونه حتميًا وسيرورةً طبيعيةً للظُّروف أو الشُّروط البدنية، وقد أكَّد على ذلك عالم الأحياء التطوري ريتشارد دوكنز، بقوله: "أعتقد أنَّ الأشياء تمَّ تحديدها بطريقة عقلانية من خلال أحداثٍ سابقة، وهذا يلزمننا بوجهة نظرٍ مفادها أنَّ اعتقادنا بوجود إرادة حرة، أو أنَّنا نمارس حرية الاختيار، فإنَّنا نخدع أنفسنا"^٣ وفي اللقاء ذاته، يقول لورانس كراوس: "إنَّنا نعيش حياةً كالجسيمات التي تتواجد في الغرفة، حيث بإمكاننا أن نناقش حولها، وهي تتصرَّف بطريقة توهمها أنَّها حرةٌ وغير مقيدة بشيء، وكذلك نحن، نتصرَّف كما لو أنَّ لدينا إرادة حرةً لأنَّنا نعيش في عالم معقَّد للغاية، حيث توجد الكثير من العوامل التي تؤثر على قراراتنا التي نأخذها تبعًا لتلك العوامل"^٤، وبما أنَّ فرانسيس في رواية "عبري ... إلى حدٍّ ما" جاء بطريقةٍ غير طبيعيةٍ تمامًا؛ أي من خلال بنوك الحيوانات المنوية، وكان يبدو أكبر من عمره بسبب المسؤوليات التي أُلقيت على عاتقه منذ طفولته، من حيث الاهتمام بوالديه، والعمل من أجل معيشتهم، والتفكير المتواصل المرهق فيمن يكون والدُه البيولوجي، ما سبَّب له أرقًا وقلقًا وجوديًا، فضلًا عن أنَّ البيئة التي عاش فيها لا تؤهله

^١ هي روائية بريطانية درست الأدب الإنجليزي في جامعة كوليج لندن ودورهام، وحفَّت روايتها "The Guest List" و "The Paris Apartment" أعلى المبيعات وفقًا لنيويورك تايمز.

^٢ Foley, Lucy. "The Paris Apartment", William Morrow, 2022, p.37.

^٣ FREE WILL Lawrence Krauss and Richard Dawkins: https://youtu.be/r_1aS7C0VXI?t=47.

^٤ FREE WILL Lawrence Krauss and Richard Dawkins: https://youtu.be/r_1aS7C0VXI?t=47.

^٥ Wells, Benedict. "Presque genial", Slatkine & Cie, 2020, p.14.

ليكون شيئاً ذا بالٍ، فعلى الرغم من أنها اتسعت لماكدونالدز وبيتزا بابا جون، وستاريكس، ووالمارت، وسب واي، وغيرها، إلا أن كلايمونت كانت صغيرة جداً للجامعات والاحتفاليات؛ ولذلك إذا أردت أن تفعل شيئاً ما في حياتك، فعليك أن تغادر كلايمونت بعد انتهاءك من المدرسة مباشرة، أما الذين بقوا فقد عانوا من عقدة نقص؛ لأنهم كانوا يعيشون هناك وليس في جيرسي، كما يعاني سكان جيرسي من عقدة لأنهم يعيشون فيها وليس في نيويورك. وبالتالي، أن تعيش في ضواحي كلايمونت، يعني أن تعيش في المقطورات والكرفانات، مع المجانين والفاشلين والأسر المفككة، والأطفال المرتبكين المشتتين بأسنانهم المتعفنة، وتلك النظرة المرتبكة الداهلة لأولئك الذين اختارت الحياة وجوهم لتطبخها بالجهل¹.

وفي البيئة التي عاشها أيضاً، كثيراً ما كان يشهد قتالاً يسفر عن رجل نصف ميت على جانب الطريق، وكثيراً أيضاً ما كان يسمع الشرطة تأتي لاعتقال شخص ما بسبب المخدرات أو الجريمة²، وأفضل جيرانه على الإطلاق هو جاره توبي ميلر، الشخص الذي وُصف بالعاذي واللطيف، وهو ذاته الذي يبيع كل أنواع المخدرات لينفق على عائلته³!

ومن الظروف البيئية التي كان يعاني منها فرانسيس أيضاً، ظاهرة أجباء والدته، حيث عرضها ذلك في كثير من الأحيان إلى الإهانة والضرب أثناء سكرهم، حتى كان فرانسيس يتدخل للدفاع عن والدته وطرده الرجل من المنزل المتقل⁴.

إن هذه الأمور جميعاً، بالإضافة إلى السارد الذي أبدى عن وجهة النظر التي تنطلق منها الذهنية الأمريكية، وهي الحتمية، وذلك في قوله: " لأولئك الذين اختارت الحياة وجوهم لتطبخها بالجهل"، إذ أعطى للحياة وظروفها ومواقفها وحوادثها المسؤولية الكاملة عما يعيشه الإنسان أو يختلج نفسه، جعل من فرانسيس مؤمناً كبيراً بالخط والعشوائية، فكان على الدوام يشتري أوراق اليانصيب، وكانت اللحظات التي

¹ Wells, Benedict. Presque génial, Slatkine & Cie, 2020, p.17.

² Presque génial, p.18.

³ Presque génial, p.19.

⁴ Presque génial, p.20.

يكشطها خلالها هي الأكثر إثارة في جميع أيامه، إذ كان يأمل لثوانٍ قليلة أن يفوز بالجائزة الكبرى، ولكن ذلك لم يحدث على الإطلاق¹.

لقد كانت حياة فرانسيس خاوية إلى الحد الذي يجعله يحسد صديقه جروفر على أبسط الأشياء وأقلّ المواقف حميميةً مع أهله، فكان يحدث نفسه بعد استماعه إلى آل شيدويك يتحدثان مع ابنهما جروفر، وبعد وضعهما أذرعهما حول كتفيه مرارًا وتكرارًا بكلّ فخر، أنّ جروفر لم يكن يدرك كم كان محظوظًا، وفي الحقيقة ليس هنالك ما يدلّ على كونه محظوظًا للغاية، سوى أنّ العقدة التي تطوّرت في ذهنية فرانسيس، جعلته يرى الأشياء الطبيعية، أو المواقف العادية التي يُفترض أن تحدث دومًا، أمرًا استثنائيًا لأنّه حرّم من مثل هذه المشاعر، فلا هو يعرف أباه، فضلًا عن كونه راعيًا لأمّه بدلًا من العكس، وهذه ولا شكّ إحدى السلبيات التي حقّتها التكنولوجيا من خلال برنامج الاصطفاء، أو الانتقاء، وبصورة عامّة أيضًا، إنّ التكنولوجيا أصبحت تسبّب شكًا من أشكال الإدمان النفسي الذي يمنع التواصل بين الأفراد حتّى في المنزل الواحد، وهي وإن قرّبت الأشخاص من قارّاتٍ مختلفة، إلّا أنّها أبعدت الأفراد في المنزل الواحد عن بعضهم البعض، فضلًا عن التسبّب بأزماتٍ نفسيةٍ مختلفة كالإكتئاب².

وفي السياق ذاته، كان فرانسيس يتعرّض إلى مواقف غير طبيعية، إلى مواقف يُفترض أن تبعث في نفسه مشاعر الألم واللوعة والحسرة، وتتسبّب له بالبكاء أو التعبير عن الحزن بطريقة ما، إلّا أنّ درجة حتمية البؤس التي كان قد وصل إليها جعلته يرى في مثل هذه الأمور المبكية الحزينة شيئًا طبيعيًا؛ ولذلك حين سُئل عن آخر مرّة بكى فيها، تردّد وتلعثم، وأجاب: "لا أعرف، في الحقيقة، أنا لا أبكي أبدًا" وكأنّ المشاعر الإنسانية استوصّلت منه، أو أنّه في الحقيقة كان نتاجًا لهذه الآليات التكنولوجية التي جعلته يعيش بلا أب، فاقداً للعديد من المواقف الضرورية والأساسية لتنمية الذكاء العاطفي³.

¹ Presque génial, p.21.

² Presque génial, p.31.

³ Bai, Wei, et al. "Internet addiction and its association with quality of life in patients with major depressive disorder: a network perspective." Translational psychiatry 12.1 (2022): 1-7.

⁴ Presque génial, p.68.

وفجأة، حين أدرك فرانسيس أن أباه - كما كان يظن - رجل مهم وعالم عبقرى، شعر أن كل شيء أضحي منطقياً لأنه عرف ما سيفعله، وهو "الهروب أخيراً من حياته، وأن يظهر للناس أنه لم يكن فاشلاً. وقد كان جاره توبي يقول دائماً إن الرجال مثلهم في هذا البلد لا يخرجون من هذه البيئة إلا إذا كان لديهم الكثير من المال أو العبقرية"¹، وعلى الرغم من أن هذين الأمرين يرجعان إلى نسقين مختلفين، إلا أنهما مرتبطان بشكل كبير جداً بما تريد أن توضحه الرواية، وهو نسق الحتمية، فمن حيثية المال، لا يمكنك أن تكون غنياً إلا إذا وُلدتَ لغنيٍّ مثل رايان، أو كسرتَ نسقَ الحتمية ذاك من خلال الحظ والعشوائية التي أصبح الإيمان بها مؤكداً على الحتمية ذاتها، فبيس هنالك أدنى مهربٍ إلا من خلال العشوائية والحظ، وهو الأمر الذي لجأ إليه فرانسيس؛ إلى صالات لاس فيغاس للعب الروليت. ومن حيثية الذكاء والعبقرية، فإنه تم استخدام مشاريع بحالها لإثبات أن العبقرية يتم توارثها فقط جيلاً بعد جيل، أي إنها خاصة بأشخاص بعينهم في السياق العام، ولذلك قال مونرو صاحب المشروع لأحد الصحفيين مرةً: "تعريف العبقرى بكلمة واحدة: الجين"² وبناءً عليه، فإن الذي لم يكن والده عبقرياً من خريجي هارفارد، أو عبقرياً في زاوية ما، فعليه ألا يجد ويجتهد، وأن يسلم أمره لحتمية القضاء والقدر، وهو ما فعله فرانسيس، حتى أدرك - خاطئاً - أن والده عبقرى من خريجي هارفارد وموسيقى أيضاً، فتبدلت وجهته نظره عن الحياة بأسرها، وأصبحت لديه معتقدات أخرى يخيا من أجلها، فراح يسعى إلى النجاح بأي شكل ممكن، غير أن الحتمية المستقرة في لوعيه، جعلته يذهب إلى صالات الروليت، وهي المعادل الموضوعي للعشوائية والحظوظ، وهكذا بدلاً من الإيمان بالحتمية، أصبح الإيمان بالعشوائية، بدلاً من العمل بنظام وترتيب معين وبكد وجهد لإنهاء المدرسة والتعليم الجامعي والعمل القانوني. علماً أن الحياة المدرسية بلغت من الأهمية إلى الدرجة التي تجعل المتمرد عنها، أو الذي لم ينجح فيها، فاشلاً طوال حياته، وترافقه هذه اللعنة في أيامه كلها؛ ولذلك كان ماركوس جيننغز الذي طرد من المدرسة أكثر من مرة قد حنم عليه؛ وفقاً للسارد ألا يبلغ أي مكان، وألا يكون له مستقبل في أي مجال قانوني؛ ولهذا السبب قيل إنه أصبح متشرداً، أو أنه تورط في

¹ Presque genial, p.89.

² Presque genial, p.153.

المخدرات، وهي الخرافات المعتادة التي تشيع بين طلاب المدرسة الثانوية¹، وإنَّ التأكيد على مثل هذه الحتمية تكرَّر في الرواية، حينَ عرفَ فرانسيس أنَّه نتاج مشروعٍ تكنولوجيٍّ، فقبله كان فرانسيس يرى نفسه شخصًا فاشلاً بامتيازٍ ولن يحقق شيئًا ما في حياته، تمامًا مثل جاره في المنزل المتنقل داريوس بن الذي اقتصرَت مهامه على إخراج القمامة، وأماندا بارنز المريضة التي كانت دائمة السعال وتعملُ مربيةً في المنزل، وقصارها أن تعلقَ الغسيلَ، أو العجوز السيِّدة فيشر التي لم يكن بيدها شيءٌ سوى الجلوس على الأرجوحة، أو مثل أكثر من مليوني طفل أمريكيٍّ مشردٍّ²، كلهم مستبعدون متخلفون يعيشون في بلدٍ لا يهتمُّ بهم أحد، والحكومة تلتزم الصمتَ أمامهم بدلًا من مساعدتهم أو فحص أوضاعهم والعمل على تطويرهم وتخصيص مشاريع وبرامج تنموية لرعايتهم، ولماذا يتم ذلك إذا كان قد ترسَّخ في تلك البيئة أنَّ الفشل محتمٌّ عليهم؟! حتَّى قالَ فرانسيس في نفسه: "كلُّ هؤلاء النَّاسِ المُرهقين لم يصلوا إلى أيِّ مكانٍ، ولن تكون لديهم القدرة لتحقيق شيءٍ كبيرٍ، وفجأةً، راودته الفكرة، بغضِّ النظر عن مدى صعوبة الدفاع عن نفسه، سيصبح يومًا ما مثلهم" لقد كان متأكدًا من ذلك، ومن حتمية الأمر وعدم قدرته على الوقوف أمام هذه القدرة وتحديها.

ولم يكن فرانسيس يخشى أن يصبح مثلهم فاشلاً فقط، فالفشل لا يتعلَّق بالتعليم وحده، أو ببيع المخدرات وتجارتها، أو باللصوصية، أو العيش بلا هدف، بل كان يخشى أيضًا أن يصبح أبًا فاشلاً، وهو ما حدث لدى بعض الجيران، إذ كان يسمعُ فرانسيس أنينَ الفتيات بسببِ والدهم الذي استمرَّ في ضربهم، وكان "سكيرًا عاطلاً عن العمل، وطاغيةً يفترسُ بناته دونَ استطاعةٍ أحدٍ على منعه. وفي إحدى المرات كنتُ أشاهدُ التلفازَ فرنَّ جرسُ الباب. كُنَّ أخوات توبي. لقد سألوا عما إذا كان بإمكانهم قضاء الليلة مع فرانسيس، متذرعَاتٍ أن شقيقهنَّ يريدُ أن يكون بمفرده. فسمحَ لهن فرانسيس بالدُّخول، ولكن كان لديه شعورٌ غريبٌ، فقد كانت هناك صرخات مكتومة طوال الوقت، ثم فجأةً حلَّ صمتٌ تامٌّ. في البداية اعتقد أنَّ شخصًا ما مات، لكنَّ سيارة الإسعاف وصلت وأخذت والدَ توبي. في صباح اليوم التالي كان فرانسيس

¹ Presque genial, p.65.

² Presque genial, p.104.

خارجاً للتخلص من القمامة. ظهر توبي أمامه، لقد تغيّر شيء ما فيه. لم يستطع فرانسيس معرفة إذا كان يكي أو أن وجهه مغطى بالمطر. حدّقا ببعضهما البعض، ثم قال توبي: لم أستطع. إنّه أبي؛ لكنني أخبرته أنّه إذا عادَ إلى هنا، فسأفعل¹، فنلاحظُ من خلالِ هذا السردِ أنّ الفشلَ وحتميّته ليسَ المشكلة الوحيدة، بل هناك تداعيات خطيرة وجسيمة على الأفراد أولاً، والمجتمع ثانياً، فمن ناحيةٍ فرديّةٍ، يصبحُ الشّخصُ غريباً عن نفسه، متوحّشاً، معتدياً، يحطّمُ أقربَ المقرّبين منه؛ كأفرادٍ عائلته، وهذا ما يمكنُ أن يتسبّبَ بردّ فعلٍ عكسيٍّ عليه يتمثّلُ في تحوّلٍ أحدِ أبنائه أيضاً إلى شخصٍ مثله، فالأمرُ جينيّ حتميٌّ أولاً، ومكتسبٌ بالتّنشئة ثانياً، وهكذا كادَ كوبي أن يفتكَ بأبيه. ومن ناحيةٍ جمعيّةٍ مجتمعيّةٍ، إنّ تداعياتِ العيش في مجتمعٍ يؤمنُ بالحتميّة وعدمِ القدرةِ على التّغييرِ أو اتّخاذِ القراراتِ الأخلاقيّةِ وتبريرِ كلّ شيءٍ بطريقةٍ انعدامِ الإرادةِ الحرّة، يتسبّبُ بظهورِ الفوارقِ العميقة بينَ طبقاتِ المجتمعِ المختلفة، وهذا ما يمكنُ أن يسفرَ عن حالاتِ العنفِ والقتلِ، كما هو حالُ الاعتقادِ السائدِ لدى البيضِ بتفوّقهم والسودِ بدنوّهم، ناهيك عن إشكاليّةِ تفسّخِ العائلاتِ وتهديمها والأضرارِ السلبيّةِ التي يمكنُ أن تتسبّبَ بها من كوارثٍ للمجتمع، فأن تعيشَ طفولةً بلا أبٍ وفقاً للدراساتِ العلميّةِ الحديثةِ يعني أن تنهربَ من المدرسةِ وتهملها²، وأن تعاني من مشاكلٍ في الصّحّةِ العقليّةِ يمكنها أن تؤثرَ عليكِ على المدى البعيد³، وفي آخرِ خمسةٍ وعشرين عاماً توصّلت ستّ عشرة دراسةً إلى أنّ غيابَ الأبِ خلالِ بعض/كلّ مرحلةِ الطّفولة يؤثّرُ سلّباً على الأبناء من

¹ Presque genial, p.105.

² Waqar, Salma, Rabia Tabassum, and Ghazala Shaheen. "Perception of Teachers and Mothers about Impact of Father Absence and Presence on the Truancy Behavior of Secondary School Students." International Research Journal of Management and Social Sciences 3.2 (2022): 55-64.

³ Culpin, Iryna, et al. "Father absence and trajectories of offspring mental health across adolescence and young adulthood: findings from a UK-birth cohort." Journal of Affective Disorders (2022).

النَّاحِيَةِ البدنيَّة، حيث يُوَدِّي إلى اضطراباتٍ هرمونيَّة^١، ما يمكنُ أن يتسبَّبَ أيضًا بتخنُّثِ الأبناءِ وقلةِ نجاحهم في التَّكَيُّفِ مع الجنس الآخر^٢.

ولكن في لحظةٍ واحدةٍ، وبعدَ أن تذكَّرَ فرانسيس المشروعَ الذي أُنجِبَ من خلاله، تغيَّرت وجهتهُ نظره مباشرةً، وأصبحَ طموحًا متطلِّعًا إلى الأمام محدِّثًا نفسه أنَّ ذلك لن يحدثَ له أبدًا^٣، بل أصبحَ يرى في نفسه قادرًا على تحمُّلِ مسؤوليَّةِ الأعباءِ الملقاةِ على عاتقه وعاتقِ والدته، كدفعِ فواتيرِ الهاتفِ وإيجارِ المنزلِ المتقلِّ^٤، فالآنَ تبدَّلت حتميَّةُ الفشلِ إلى حتميَّةِ النَّجاحِ.

لقد أبدى السَّارِدُ والشُّخُوصُ معًا في الرِّوَايَةِ عن بيئةٍ اجتماعيَّةٍ كاريثيَّةٍ محدَّدةٍ مسبقًا، وكما هو الحالُ في البيئةِ السَّويديَّةِ الأوروبيَّةِ التي يُفترَضُ أن تكونَ مترفةً بسببِ الرِّفاهيَّةِ العاليَةِ، إلَّا أنَّ في نفوسهم شيئًا سلبيًّا نحو الإنجابِ، وكذلك الأمرُ تكرَّرَ هنا في البيئةِ الأمريكيَّةِ، حيثُ نقولُ أن ماي: "أحيانًا أفكِّر في نفسي أنَّني أرغبُ في إنجابِ ابنٍ أو ابنةٍ. لكنني بدأتُ على الفورِ في التَّفكيرِ أنَّني لا أريدُ أن أفعلَ كلَّ هذا لطفلي. ربَّما يكون الإنسانُ سيئًا بطبيعتهِ. وربَّما تكون النُّتِيجةُ النَّهائيَّةُ سلبيةً دائمًا على الرَّغمِ من كلِّ الأشياءِ الجيِّدة. أعني، في الأفلامِ يتظاهرون دائمًا أنَّهم يتعلَّمون من أخطائهم، وأنَّه بإمكانهم أن يصبحوا أشخاصًا آخرين ... ولكن، في معظمِ الحالاتِ، هذه كذبة. ولهذا السَّببِ لا شيء يتغيَّر. أعتقد أنَّه ستكون هناك حروب دائمةٌ، وجوع دائمٌ، بالإضافةِ إلى الظُّلمِ والأكاذيب". ضحكت آن ماي. وتابعت كلامها: "من ناحيةٍ أخرى، أشعرُ أنَّني في بيتي في هذا العالم. أنا مخطئ، وظالم، وربَّما أنا مخلوق شرير". فقالَ لها: "وأنا أيضًا^٥"، إنَّ هذا الانطباعَ الذي ترسَّخَ في نفوسِ الشَّخصيَّاتِ بعدمِ القدرةِ على التَّغييرِ والتَّسليمِ للواقعِ الأليمِ الطَّافِحِ بالظُّلمِ والأكاذيبِ، معادلٌ ومساوٍ لمقولةِ الحتميَّةِ، إذ لا يستطيعُ إنسانٌ أن يفرَّ من هذا القدرِ

¹ Boothroyd LG, Cross CP. Father absence and gendered traits in sons and daughters. PLoS One. 2017 Jul 5;12(7):e0179954. doi: 10.1371/journal.pone.0179954. PMID: 28678822; PMCID: PMC5497959.

² Labuschagne, Pieter H. "Science in service of theology: Gender and sexual orientation." In die Skriflig 55.1 (2021): 1-10.

³ Presque genial, p.71.

⁴ Presque genial, p.107.

⁵ Presque genial, p.171.

أو يفلت من سطوته؛ ولهذا السبب، حين تأكدَ فرانسيس أنَّ والدَه ليسَ كما كان يتوقَّعُ، ازدادَ إصرارُه في الاتِّجاءِ نحوَ الحظوظِ والصُّدفَةِ والعشوائِيَّةِ، إذ تبيَّنَ أنَّ والدَه لجأَ إلى مزوِّرٍ فأصدرَ له شهادةً من هارفارد في الكيمياءِ العصبِيَّةِ، بالإضافةِ إلى هُويَّةٍ جديدةٍ، واختبارِ ذكاءٍ فوقَ المستوى، وهكذا شاركَ في العديد من بنوكِ الحيواناتِ المنويَّةِ وأنجبَ تسعةَ أبناءٍ آخرين بهذه الطَّريقةِ، فقط من أجلِ كسبِ خمسةِ آلافِ دولارٍ عن كلِّ مرَّةٍ!، وبعد أن اكتشفَ فرانسيس هذه الخديعةَ الكبرى، شعرَ بخيبةِ أملٍ حطَّمتَ كيانه ووجدانه، ومن هذا المنطلقِ لجأَ إلى العشوائِيَّةِ والصُّدفَةِ بعدَ اكتشافِه أنَّ حتميَّةَ الجيناتِ لم تعدِ مجديَّةً بعدَ الآنَ، فأتَّجَهَ إلى الكازينو في لاس فيغاس مرَّةً أخرى ليكسبَ مبلغًا طائلًا من المال، وتنتهي الروايةُ بخاتمةٍ مفتوحةٍ لم يحدِّدِ الأديبُ فيها فيما إذا كسبَ فرانسيس أم لا.

قد يبدو للبعضِ لأوَّلِ وهلةٍ أنَّ مثلَ هذه المشاريعِ (بنوكِ العباقرَةِ) تسبَّبتِ بوصمةٍ عارٍ للمجتمعينِ الأوروبيِّ والأمريكيِّ، إلَّا أنَّ ذلكَ لا يقاربُ الحقيقةَ، فمؤخرًا، صرَّحَ والدُ إيلون ماسك أنَّ شركةَ أمريكيَّةٍ جنوبيَّةٍ اتَّصلتِ بهِ للتَّبَرُّعِ بالحيواناتِ المنويَّةِ لخلقِ المزيدِ من الأشخاصِ مثلِ ابنه، وتبرير ذلكَ وفقًا له: "لماذا يذهبون إلى إيلون في حين بإمكانهم الدَّهاب إلى الشَّخصِ الفعليِّ الذي خلقَ إيلون؟!".¹

إنَّ مثلَ هذه المشاريعِ ما زالت قائمةً، وما زالَ الأشخاصُ النَّاجحونَ مطلوبين من قِبَلِ بنوكِ الحيواناتِ المنويَّةِ؛ وهذا يعني استمرارَ المعاناةِ والأزماتِ المتعلِّقةِ بالهُويَّةِ والجنسِ لدى تلكَ الشُّعوبِ، ليبقى الأدبُ عمومًا والروايةُ خصوصًا مسرحًا لمثلِ هذه الأحداثِ، وتعبيرًا عن مثلِ هذه الأزماتِ والإشكاليَّاتِ.

¹ Presque genial, p.311.

² https://www.businessinsider.com/elon-musks-dad-errol-asked-donate-sperms-create-more-elons-2022-7?utm_source=copy-link&utm_medium=referral&utm_content=topbar

التطوُّر التكنولوجيُّ سببًا في مشاكلِ الحتميةِ

إنَّ أوَّلَ ما يتبادرُ إلى الأذهانِ حينَ نتحدَّثُ عن العالمِ الأوروبيِّ والولاياتِ المتَّحدةِ الأمريكيَّةِ، هما أمرانِ، التطوُّرُ العلميُّ والتكنولوجيُّ الهائلُ الذي أحرزه القطبانِ منذ مطلع القرنِ الحاليِّ؛ أمَّا الثاني فهو الحريةُ والديمقراطيةُ، وهو الوصفُ الذي يحبه ساسةُ تلكَ الدُّولِ ومواطنوها، ولكن، هل هناكَ حريةٌ حقيقيةٌ إيجابيةٌ؟!

إنَّ نمطَ الحريةِ كما هو ظاهرًا في العالمِ الأوروبيِّ والعالمِ الأمريكيِّ، مُطلقٌ غيرُ مقيدٍ، ولو قُيدَ فلن يحتاجَ أكثر من بضع تظاهراتٍ في الشوارعِ كي يُحرَّرَ وتخضعَ الحكومةُ لمطالبِ الشعبِ، وهذا وإن يبدو إيجابيًا في بعضِ حالاته، إلَّا أنَّه في واقع الأمرِ بالغُ السَّلبيةِ، فمفهومُ الحريةِ مطلقةٌ مدمِّرةٌ ذاتة، فهو "مقيدٌ" أصلًا، إذ لولا معنى "القيد" لما وُجدَ مفهومٌ للحريةِ، إذن إنَّ المفهومينِ متضايقانِ؛ أي لا يمكنُ فهمَ أحدهما دونَ الآخرِ، وتأسيسًا على ذلكَ لم يصرَّحَ أعظمُ الفلاسفةِ منهجًا وفكرًا بإطلاقِ الحريةِ، بل عدَّوا ذلكَ عيبًا وانتقاصًا من قيمةِ الحريةِ، وعبئًا بها، فيقولُ إيمانويل كانت حولَ تنشئةِ الطِّفلِ على الحريةِ: "علينا أن نلاحظَ القواعدَ النَّاليةَ؛ الأولى أنَّه يجب أن نتركَ الطِّفلَ حرًّا منذ طفولتهِ الأولى، وفي جميعِ اللَّحظاتِ (باستثناءِ الحالاتِ التي يمكنُ أن يؤديَ ذاته، كأن يمسكَ بأداةٍ حادَّةٍ) شريطةَ ألاَّ يشكِّلَ عائقًا أمامَ حريةِ الغيرِ، كأن يصرَّحَ أو أن يعبَّرَ عن بهجتهِ بطريقةٍ مزعجةٍ، وأن يضايقَ الآخرينَ؛ والثَّانية: علينا أن نبيِّنَ له أنَّه لا يمكنه أن يصلَ إلى غاياته، إلَّا إذا تركَ الآخرينَ يصلونَ كذلكَ إلى غاياتهم، مثلًا ألاَّ نحقِّقَ له أيَّ متعةٍ إذا لم يفعلَ هو أيضًا ما نرغبُ فيه، وأنَّ عليه أن يتهدَّبَ .. إلخ، والثَّالثة: يجب أن نبرهنَ له أنَّ الإكراهَ الذي نفرضه عليه، هدفه هو أن نجعله يستخدمُ حُرِّيَّته، وأن نريَّيه لكي يستطيع أن يكونَ مستقلًّا حرًّا، يعني أن يستغني عن اللُّجوءِ إلى الغيرِ"¹ إذن، إنَّ للحريةِ حدودًا وعوائقَ يجبُ أن يتوقَّفَ المرءُ عندها، ومن هذه العوائقِ إيذاءُ النَّفسِ أو إيذاءُ الغيرِ، ولكن، حين نلقي نظرةً على المجتمعينِ الأوروبيِّ

¹ Kant, Immanuel. "On Education". Trans. Annette Churton, Dover publication, INC, New York, 2003, p.15.

والأمريكي، نجد أن الانتحار أحد أبرز الأسباب المؤدية للوفاة، ففي السويد على سبيل المثال، الدولة التي حققت أعلى معدلات الحرية، نجد أن هناك أربع عشرة حالة انتحار من بين كل مائة شخص في عام ٢٠١٩، أما في الولايات المتحدة الأمريكية فأشار التقرير الحكومي الصادر عن مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها (CDC) إلى أن معدلات الانتحار ارتفعت في الولايات المتحدة الأمريكية بين عامي ٢٠٠٠-٢٠١٨، وأنه السبب الرئيسي والأبرز للوفاة في الولايات المتحدة حيث وصلت أعداد الوفيات بسببه إلى ٤٥,٩٧٩ شخصاً عام ٢٠٢٠، أما من حيث إيذاء الغير، فحدث ولا حرج، فلولا الاعتداء لما شرع حمل السلاح في الولايات المتحدة دفاعاً عن النفس، بالإضافة إلى الاعتداءات العنصرية التي تتصدر صحف العالم والمواقع الإخبارية بين الفينة والأخرى، وكان من أبرزها مؤخراً، مقتل جورج فلويد الأسود على يد الشرطة، مما جعل السود يخرجون إلى الشوارع ويدمرون العديد من الممتلكات للبيض؛ ردًا على العنصرية؛ لتظهر هنا مرة أخرى أزمة الهوية، وتكتمل بأزمة الهوية الجنسية، ففي الظاهر، نعد الحرية الجنسية أمراً مقبولاً إيجابياً؛ وشكلاً من أشكال التحضر، ولكنه في الحقيقة يترك خلفه العديد من الأمراض التي قد تؤدي إلى الوفاة، وفقاً لما أوردناه حين الحديث عن أزمة الهوية الجنسية؛ ليتبين معنا أن الأمر لا يتعلق فقط بالإيذاء النفسي أو الجسدي المباشر، وإنما إلى الإضرار بالآخرين بشكل غير مباشر، من خلال نقل الأمراض وتفشي العدوى.

وإذا كان العالم الأوروبي والأمريكي ينعم بهذا القدر الكبير من الحرية والديمقراطية، فما الذي يدفع تلك الأعداد الموهلة إلى الانتحار؟! ولنجيب عن مثل هذا التساؤل، يمكننا أن نعود إلى ما قاله إيمانويل كانت حول الحرية، ونذكره بما قاله الفيلسوفان هيجل وإنجلز، حيث ورد حول الحرية: "إن الحرية بالنسبة لهيجل هي عبارة عن تعقيل للضرورة، فالضرورة ليست عماء إلا عندما تكون غير مفهومة. إن الحرية ليست في استقلالية حاملة تجاه قوانين الطبيعة، بل إنها تكمن في معرفة هذه القوانين، وفي الإمكانية المتاحة بصدد

¹ <https://worldpopulationreview.com/country-rankings/suicide-rate-by-country>

² CDC. CDC WONDER: Underlying cause of death, 1999–2019. Atlanta, GA: US Department of Health and Human Services, CDC; 2020. <https://wonder.cdc.gov/Deaths-by-Underlying-Cause.html>

استخدامها منهجياً من أجل غاياتٍ محدّدة. هذا صحيحٌ أيضاً سواء تعلّق الأمر بقوانين الطبيعة الخارجية، أو بالقوانين التي تتحكّم في الوجود الفيزيائي والنفسي للإنسان ذاته¹، إنّ مثل ذلك الإطلاق للحرية، لا يعدو كونه تعويضاً عن النقص الذي أدّت إليه العلوم من حيث هذا المفهوم، فحين وصلت ذروة إشادة المجتمعات بالحرية والديمقراطية، خرج والعلماء الأوروبيون والأمريكيون ليؤكدوا وصول الجنس البشري إلى أوج الحتمية؛ أي إلى أوج انعدام الإرادة الحرة، كما أوضحنا في الفصل الثاني والفصل الحالي؛ فإذا سقط هذا المفهوم، ما الذي سيبقى للفخر من مفهوم الحرية إذا أخرجت إرادة الإنسان للحرية؟!

إنّ فكرة تتصل الإنسان من مسؤولياته التي برزت في الأدبيات التي ناقشناها في هذه الدراسة؛ بدافع انعدام الإرادة الحرة، وتبرير ذلك علمياً، يقصي جميع القيم والمفاهيم الأخلاقية؛ ممّا يؤدي إلى انحدار وتهافت أخلاقيّ قيميّ في المجتمعات التي تتبنّى هذه النظرة، فالإرادة الحرة كما يقول سام هاريس²، وهو أحد أشدّ المعارضين لفكرة الإرادة الحرة: "تلامس مسألة الإرادة الحرة كلّ ما نهتمّ به تقريباً؛ كالأخلاق والقانون والسياسة والدين والعلاقات الحميمة ومشاعر الذنب والإنجاز الشخصي، ويبدو أنّ معظم ما هو إنسانيّ واضح في حياتنا يعتمد على رؤيتنا لبعضنا البعض كأشخاصٍ مستقلّين قادرين على الاختيار الحرّ، فإذا أعلن المجتمع العلمي أنّ الإرادة الحرة مجرد وهم، فسيؤدي ذلك إلى نشوب حربٍ ثقافية أكثر عدوانية بكثير من تلك التي تمّ شنها حول موضوع التطوّر. بدون الإرادة الحرة، لن يكون المذنبون والمجرمون علاقة بما فعلوا، بل إنّ أيّ تصوّر للعدالة يؤكّد على معاقبتهم (بدلاً من ردعهم أو إعادة تأهيلهم أو احتوائهم فقط) سيبدو متناقضاً تماماً³، ورغم كلّ ما قاله من الإشكاليات التي ستنبع من إطفاء الإرادة الحرة، إلّا أنّه أكّد في الكتاب ذاته أنّ: "الإرادة الحرة وهم، وإرادتنا ببساطة ليست من صنعنا، إذ تنبثق الأفكار والنوايا من أسباب خفية خفية لا ندركها ولا نمارس عليها أيّ سيطرة واعية، وليس لدينا الحرية التي نعتقد أنّنا نتمتع بها. إنّ الإرادة الحرة أكثر من مجرد وهم، إذ لا يمكن جعلها متماسكة من الناحية المفاهيمية، فإمّا أن تحدّد

¹ Engels, Frederick. "Anti-Dühring", Trans. Emile Burns, International Publishers, 1987, p.105.

² فيلسوف وكاتب أمريكي في عدّة موضوعات تشمل الفلسفة العقلية والدين وعلم الأعصاب والذكاء الصناعي، ويُعدّ واحداً من الفرسان الأربعة للإلحاد الجديد إلى جانب ريتشارد دوكنز ودانييل دينيت وكريستوفر هيتشنز.

³ Harris, Sam. "Free will". Simon and Schuster, 2012, p.13.

إرادتنا مسبقاً ولسنا مسؤولين عنها، أو أنها نتاج الصدفة، ولسنا أيضاً مسؤولين عنها، فإذا كان اختيار رجل ما أن يطلق النار على الرئيس محدداً بنمط معين من النشاط العصبي، والذي هو بدوره نتاج أسباب سابقة، ربّما كانت مصادفةً مؤسفةً لجينات سيئة وطفولة غير سعيدة وقلة النوم وغير ذلك، فهل يمكننا أن نقول إن إرادته حرة بعد ذلك؟!¹

هذه هي الأفكار الشائعة في الأوساط العلمية والفلسفية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، فلسفة العينية، فلسفة اللاهدف، وهي بدورها إذا دققنا النظر، تحرّض الإنسان على فعل أمور يدرك داخلياً أنها خاطئة؛ لأنّ مثل هذه الفلسفة والتجارب العلمية تريح ضميره في أنّه في الحقيقة غير مسؤول عن أفعاله، وبالتالي؛ وفقاً لهاريس، يجب ألا يعاقب الإنسان على أي فعل؛ لأنّ عقابه يعني وجود تناقض قيمّي أخلاقي، إذ لا علاقة له بما يحدث داخله، وهكذا تتصل الإنسان من جسده وسيطرته عليه، فضلاً عن تنصله من المفاهيم التجريدية كالمسؤولية والحرية.

إنّ تلك الفلسفات والآراء العلمية جاءت نتيجة للسيطرة التكنولوجية على العالم، حيث تقدّمت وتطوّرت الوسائل العلمية التجريبية، فأصبح من اليسير إلى حدّ ما فهم نشاط الدماغ، وطريقة عمل جسم الكائن الحي، وبالتالي أصبح من الممكن اتّخاذ نظرات أعمق إلى نفسية الإنسان تبعاً لتلك النشاطات الدماغية، ما أفرز علومًا جديدةً مثل علم النفس العصبي، غير أنّ هذه العلوم راحت تؤدّج بطرق كثيرة، أدّت في نهاية المطاف إلى تناقض الآراء والأفكار وتضاربها، الأمر الذي تسبّب في تقوية الحجج، علمياً، لدى الفرق كلّها، وزاد تيه الفرد، وأصبح من الصعب عليه أن يتّخذ مساراً محدداً في حياته.

¹ Free Will, p.15.

الخاتمة

وفي الختام، فإنّ هذه الدراسة قد تتبعت نسق الهوية ونسق الحتمية في الروايتين الأمريكية والأوروبية؛ متكنة بشكل أساسي على روايتي: لا تدعني أرحل أبداً لكازو إشيغورو، وعبقري... إلى حدّ ما لبينديكت ويلز. وقد تمّ اختيار ذلك النسقين نظراً لشموليتهما وانطوائهما على الكثير من الأنساق المختلفة التي يمكن مناقشتها؛ كالهوية العرقية والجنسية والجندرية، بالإضافة إلى الإرادة الحرة والعدمية والعبثية، وهي أنساق اشتقت من أساسين ارتكز عليهما الباحث.

وجد الباحث قصوراً في الدراسات العربية للنقد الثقافي، ما جعله يعود بشكل أساسي إلى الأساس الأوروبي لنظرية النقد الثقافي.

كما لاحظ الباحث أنّ هناك أزمة في هوية الأفراد الفردية والجنسية والعرقية، بعد تفحص هذا النسق في عددٍ من الروايات الأمريكية والأوروبية، إذ تبين أنّ هناك عوامل كثيرة ساهمت في خلق اللبس والتّيه لدى الأفراد، من أبرزها قضية المساواة الجندرية، بالإضافة إلى التطور العلمي والتكنولوجي، وتحدّث عن تفسيرات كلّ منها، وكيف تسببت هذه القضايا بخلق الأزمات، بالإضافة إلى تبعياتها المحتملة، التي يمكن أن تؤدي إلى كوارث إنسانية.

وقد بيّن الباحث في الفصل الثالث الأزمة التي يعاني منها المواطن الأوروبي والمواطن الأمريكي من حيث التناقض الفكري الذي يعيشه؛ وذلك يعود إلى طريقة الاستخدام والتّفعّل من التطور العلمي والتكنولوجي الهائل، فبدلاً من أن يؤسّس للاستقرار، نجده أسّس للفلسفات العبثية والمفاهيم شبه العدمية، من خلال تتصّل الفرد من مسؤولياته عبر اتّخاذ جانبٍ واحدٍ من حجج وبراهين علمية وفلسفية مؤدلجة، ما شكّل خطراً جسيماً على القيم الأخلاقية وجعلها دون معنى، وهذا ما شتّت الفرد في تلك المجتمعات وجعله يبرّر كلّ ما يحدث معه بطريقة خارجة عن إرادته.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربيّة

- [١] القرآن الكريم.
- [٢] الكتاب المقدس؛ العهد القديم.
- [٣] ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩.
- [٤] ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤.
- [٥] الشربيني، لطفي: معجم مصطلحات الطب النفسي، مركز تعريب العلوم الصحية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط١، ٢٠٠٣.
- [٦] العيد، يميني: تقنيات السرد الروائي، دار الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
- [٧] الغزامي، عبد الله واصطيف، عبد النبي: نقد ثقافي أم نقد أدبي، إعلان موت النقد الأدبي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤.
- [٨] الغزامي، عبد الله: النقد الثقافي؛ قراءة في الأنساق الثقافية العربيّة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٥.
- [٩] الفراهيدي، الخليل بن أحمد: العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- [١٠] قباني، نزار: الأعمال الشعرية والنثرية والسياسية الكاملة، المجلد الأول، ديوان كل عام وأنت حبيبتي، منشورات نزار قباني، ٢٠٠٥.
- [١١] نصر الله، يوسف: الكنز المرصود في قواعد التلمود، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٧.

- [1] Backman, Fredrik. "**Anxious People**". Atria Books, New York: USA, 2020.
- [2] Bai, Matt. "**Is Obama the End of Black Politics?**." New York Times Magazine 10.08 (2008).
- [3] Bai, Wei, et al. "**Internet addiction and its association with quality of life in patients with major depressive disorder: a network perspective.**" Translational psychiatry 12.1 (2022): 1-7.
- [4] Barker, Chris. "**The Sage Dictionary of Cultural Studies.**" London: SAGE Publications, 1st ed, 2004.
- [5] Barrett, Lisa Feldman. "**Seven and a half lessons about the brain.**" New York: Houghton Mifflin Harcourt. 2020.
- [6] Barth, Fredrik, et al. "**An anthropology of knowledge. Current anthropology**", 43.1, 2002, p.1.
- [7] Berger, Arthur Asa. "**Cultural criticism: A primer of key concepts**". Vol. 4. Sage Publications, 1995.
- [8] Bocock, Robert. "**Freud and modern society: An outline and analysis of Freud's sociology**". Nelson, 1976.
- [9] Boothroyd LG, Cross CP. "**Father absence and gendered traits in sons and daughters**". PLoS One. 2017 Jul 5;12(7):e0179954. doi: 10.1371/journal.pone.0179954. PMID: 28678822; PMCID: PMC5497959.
- [10] Caruso, Elise et al. "**Shigellosis Among Gay and Bisexual Men: A Qualitative Assessment to Examine Knowledge, Attitudes, and Practices.**" Sexually transmitted diseases vol. 47,9 (2020): 596-601. doi:10.1097/OLQ.0000000000001220
- [11] Connell, Kieran, and Matthew Hilton. "**The working practices of Birmingham's Centre for Contemporary Cultural Studies.**" Social History 40.3 (2015). 287-311.

- [12] Cornelisse, V.J., Sherman, C.J., Hocking, J.S. et al. "**Concordance of chlamydia infections of the rectum and urethra in same-sex male partnerships: a cross-sectional analysis**". BMC Infect Dis 17, 22 (2017). <https://doi.org/10.1186/s12879-016-2141-7>
- [13] Culpin, Iryna, et al. "**Father absence and trajectories of offspring mental health across adolescence and young adulthood: findings from a UK-birth cohort.**" Journal of Affective Disorders (2022).
- [14] Dalcher, Christina. "**Vox**". Nil, 2018.
- [15] Davies, Julian. "**Hookers Candid Confessions of Real Call Girls**", Milo Books LTD, England, 2011.
- [16] Davis, Robert & Schleifer, Ronald. "**Contemporary Literary Criticism: Literary and Cultural Studies**", New York: Longman, 2nd ed, 1989.
- [17] Dawkins, Richard. "**The Selfish Gene**". UK: Oxford University Press, 2016
- [18] Djankov, Simeon, and Eva Yiwen Zhang. "**Countries inch towards legal gender equality.**" LSE Business Review (2021).
- [19] Dostoevsky, Feodor. "**Crime and Punishment**", Translated by: Constance Garnett, Electronically Enhanced Text (c) Copyright 1991, World Library, Inc, 1991. p.33.
- [20] Eagleton, Terry. "**Culture, New Haven and London**" Yale University Press, 2016.
- [21] Eliot, Thomas Stearns. "**Notes towards the Definition of Culture.**" Faber & Faber, 2010.
- [22] Engels, Frederick. "**Anti-Dühring**", Trans. Emile Burns, International Publishers, 1987.
- [23] Fairley, Christopher K et al. "**Frequent Transmission of Gonorrhea in Men Who Have Sex with Men.**" Emerging infectious diseases vol. 23,1 (2017): 102-104. doi:10.3201/eid2301.161205.
- [24] Foley, Lucy. "**The Paris Apartment**", William Morrow, 2022.

- [25] Freud, Anna. "**The Ego and the Mechanisms of Defense**", Madison, CT: International Universities Press, 1966.
- [26] Freud, Sigmund. "**Introductory Lectures on Psychoanalysis**", The Penguin Freud Library, 2004.
- [27] Graham, Robert Klark. "**The Repository for Germinal Choice: Orthogenetics-The Optimization of Heredity and Environment.**" Mankind Quarterly 26.3 (1986): 265.
- [28] Gutierrez, Gustavo. "**Teología de la liberación**", Perspectivas. Ediciones Sígueme, Salamanca, 1971.
- [29] Hall, Stuart, ed. "**Representation: Cultural representations and signifying practices**". Vol. 2. Sage, 1997.
- [30] Hamer, Dean H., Stella Hu, Victoria L. Magnuson, Nan Hu, and Angela M. Pattatucci. "**A linkage between DNA markers on the X chromosome and male sexual orientation.**" Science 261, no. 5119 (1993): 321-327.
- [31] Harris, Sam. "**Free will**". Simon and Schuster, 2012.
- [32] Henry, Murray. "**Myth and Mythmaking.**" Boston: Beacon, 1968.
- [33] Hinselwood, Leland & Campbell, Robert. "**Psychiatric dictionary.**" New York: Oxford University Press, 4th ed, 1970.
- [34] Hooks, Bell. "**Feminist Theory: From Margin to Center**", South end Press, U.S.A, 1984.
- [35] Hu, Stella, Angela ML Pattatucci, Chavis Patterson, Lin Li, David W. Fulker, Stacey S. Cherny, Leonid Kruglyak, and Dean H. Hamer. "**Linkage between sexual orientation and chromosome Xq28 in males but not in females.**" Nature genetics 11, no. 3 (1995): 248-256.
- [36] Hugo. Victor. "**Les Misérables**", Hachette, Paris, 2003.
- [37] Ishiguro, Kazu. "**Never Let Me Go.**" Vintage Books, New York, 2006.

- [38] Jadva, V, Guasp, A, Bradlow, JH, Bower-Brown, S & Foley, S 2021, **'Predictors of self-harm and suicide in LGBT youth: The role of gender, socio-economic status, bullying and school experience'**, Journal of Public Health.
- [39] James, William H. **"Biological and psychosocial determinants of male and female human sexual orientation."** Journal of Biosocial Science 37.5 (2005): 555.
- [40] Johnson, Richard. **"What is cultural studies anyway?, "** Social text ,16, 1986, 38.
- [41] Kant, Immanuel. **"On Education"**. Trans. Annete Churton, Dover publication, INC, New York, 2003.
- [42] Krafft-Ebing, Richard. **"Psychopathia sexualis: With especial reference to the antipathic sexual instinct: A medico-forensic study"**. Arcade Publishing, 2011.
- [43] Kroeber, Alfred Louis, and Clyde Kluckhohn. **"Culture: A critical review of concepts and definitions."** Papers. Peabody Museum of Archaeology & Ethnology, Harvard University. 1952.
- [44] Labuschagne, Pieter H. **"Science in service of theology: Gender and sexual orientation."** In die Skriflig 55.1 (2021): 1-10.
- [45] Lebron, Antonio. **"What is culture."** Merit Research Journal of Education and Review 1.6. 2013. 126-132.
- [46] Leitch, Vincent B. **"American literary criticism from the thirties to the eighties."** Columbia University Press, 1988.
- [47] Leitch, Vincent. **"Cultural Criticism, Literary Theory, Poststructuralism."** Columbia University Press, 1992.
- [48] Lotman, Jury. **"The structure of the artistic text."** Ann Arbor: Michigan Slavic Contributions, 1970.
- [49] Lydon, Clare. **"Before You Say I Do"**. London: Custard Books, 2020.

- [50] Emiel Maliepaard (2017) "**Bisexuality in the Netherlands: Connecting Bisexual Passing, Communities, and Identities**", Journal of Bisexuality, 17:3, 325-348, DOI: 10.1080/15299716.2017.1342214
- [51] Morandini, J.S., Dacosta, L. & Dar-Nimrod, I. "**Exposure to continuous or fluid theories of sexual orientation leads some heterosexuals to embrace less-exclusive heterosexual orientations**". Sci Rep 11, 16546 (2021). <https://doi.org/10.1038/s41598-021-94479-9>
- [52] Nehring, Neil. "**What should the politics of cultural studies be?.**" Lit: Literature Interpretation Theory 1.3 (1990). 229-237.
- [53] Nicolay, N., Le Bourhis-Zaimi, M., Lesourd, A. et al. "**A description of a hepatitis A outbreak in men who have sex with men and public health measures implemented in Seine-Maritime department**", Normandy, France, 2017. BMC Public Health 20, 1441 (2020). <https://doi.org/10.1186/s12889-020-09499-3>
- [54] Nietzsche, Friedrich. "**Twilight of the Idols**", trans. Richard Polt." Hackett Publishing Company, Campridge, 1997.
- [55] Palakkal, Seena et al. "**Viewing the resurgence of early syphilis in light of increasing male homosexuality and childhood sexual abuse.**" Indian journal of sexually transmitted diseases and AIDS vol. 41,2 (2020): 188-191. doi:10.4103/ijstd.IJSTD_104_16
- [56] Paris, Joel. "**Is Psychoanalysis Still Relevant to Psychiatry?.**" Canadian journal of psychiatry. Revue canadienne de psychiatrie vol. 62,5 (2017): 308-312. doi:10.1177/0706743717692306.
- [57] Parsons, Vic (2 June 2019). "**EastEnders' Ben Mitchell wants new gay bar to have dark room for sex**" retrieved 24/10/2021.
- [58] Pattatucci, Angela ML, and Dean H. Hamer. "**Development and familiarity of sexual orientation in females.**" Behavior Genetics 25.5 (1995): 407-419.

- [59] Pew Research Center, June, 2020, "**The Global Divide on Homosexuality Persists**".
- [60] Reid, Kiley. "**Such a Fun Age**". New York: Putnam's Sons, 2020.
- [61] Rice, William R., Urban Friberg, and Sergey Gavrillets. "**Homosexuality as a consequence of epigenetically canalized sexual development.**" The Quarterly review of biology 87.4 (2012): 343-368.
- [62] Ross, Lori E et al. "**Prevalence of Depression and Anxiety Among Bisexual People Compared to Gay, Lesbian, and Heterosexual Individuals:A Systematic Review and Meta-Analysis.**" Journal of sex research vol. 55,4-5 (2018): 435-456. doi:10.1080/00224499.2017.1387755
- [63] Saldívar, José David. "**The limits of cultural studies**". American Literary History 2.2 (1990): 251-266.
- [64] Sanders, Alan R., et al. "**Genome-Wide Linkage Study Meta-Analysis of Male Sexual Orientation.**" Archives of Sexual Behavior (2021): 1-5.
- [65] Scholes, Robert. "**Structuralism in literature.**" New Haven, CT: Yale University Press, 1974.
- [66] Shakespeare, William. "**Romeo and Juliet**", Yale University Press, London, 2004.
- [67] Silvera, Adam. "**History is all you left me**". Soho teen, New York; USA, 2017.
- [68] Sophocles. "**Oedipus the king**", Delphi ancient classics, 2013.
- [69] Strickland, Bonnie. "**The Gale Encyclopedia of Psychology.**" Farmington Hills: Gale Group, 2001.
- [70] Terry, Jennifer, and Jacqueline L. Urla, eds. "**Deviant bodies: Critical perspectives on difference in science and popular culture**". Indiana University Press, 1995.
- [71] Tolstoy, Leo. "**Resurrection**", Translated By: Louise Maude, Oxford University Press New York, 2009.

- [72] Vignoles, Vivian. **"12 Identity: Personal AND Social."** The Oxford handbook of personality and social psychology (2018): 289.
- [73] Waqar, Salma, Rabia Tabassum, and Ghazala Shaheen. **"Perception of Teachers and Mothers about Impact of Father Absence and Presence on the Truancy Behavior of Secondary School Students."** International Research Journal of Management and Social Sciences 3.2 (2022): 55-64.
- [74] Wells, Benedict. **"Presque génial"**, Slatkine & Cie, 2020.
- [75] Wiborg, Susanne. **"Privatizing education: Free school policy in Sweden and England."** Comparative Education Review 59.3 (2015): 473-497.
- [76] Wilkerson, Charmaine. **"Black Cake"**. Ballantine Books, 2022.
- [77] Williams, Raymond. **"Culture"**. London." Fontana, 1st ed, 1981.
- [78] Williams, Raymond. **Culture and Society 1780–1950.** London: Chatto & Windus, 1958.
- [79] Wyer, Robert S., Chi-yue Chiu, and Ying-yi Hong, eds. **"Understanding culture: Theory, research, and application"**. Psychology Press, 2009.
- [80] Yanagihara, Hanya. **"A little life"**. Pan Macmillan, 2015.
- [81] Yeung H, Luk KM, Chen SC, Ginsberg BA, Katz KA. **"Dermatologic care for lesbian, gay, bisexual, and transgender persons: Epidemiology, screening, and disease prevention"**. J Am Acad Dermatol. 2019;80(3):591-602. doi:10.1016/j.jaad.2018.02.045

المصادر والمراجع الإلكترونية

- [1] CDC. CDC WONDER: Underlying cause of death, 1999–2019. Atlanta, GA: US Department of Health and Human Services, CDC; 2020. <https://wonder.cdc.gov/Deaths-by-Underlying-Cause.html>
- [2] Feynman on the Scientific Method: <https://youtu.be/9tjIfFQIIIi>
- [3] FREE WILL Lawrence Krauss and Richard Dawkins: https://youtu.be/r_1aS7C0VXI?t=47

- [4] <https://worldpopulationreview.com/country-rankings/most-atheist-countries>
- [5] https://www.businessinsider.com/elon-musks-dad-errol-asked-donate-sperms-create-more-elons-2022-7?utm_source=copy-link&utm_medium=referral&utm_content=topbar
- [6] <https://www.cdc.gov/msmhealth/viral-hepatitis.htm>
- [7] <https://www.nytimes.com/2003/07/06/books/chapters/what-every-person-should-know-about-war.html?smid=url-share>
- [8] <https://www.smithsonianmag.com/smart-news/nobel-prize-sperm-bank-was-racist-it-also-helped-change-fertility-industry-180963569/>
- [9] <https://www.vulture.com/2015/04/how-hanya-yanagihara-wrote-a-little-life.html?regwall-newsletter-signup=true>
- [10] <https://youtu.be/IDmQns78FR8?t=211>
- [11] Neil deGrasse Tyson| How to Raise Smarter Children: [https://youtu.be /tbX6aMfPtEw](https://youtu.be/tbX6aMfPtEw)
- [12] Richard Dawkins: The Selfish Gene explained/ [https://youtu.be/ Os TC 1z gf](https://youtu.be/Os TC 1z gf)



An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

IMPLICIT CULTURAL PATTERNS IN THE EUROPEAN AND AMERICAN NOVELS

By

Rashid Essam Murad Inaya

Supervisor

Prof. Khalil Odeh

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of
Master of Arabic Language and its Literature, Faculty of Graduate Studies, An-Najah
National University, Nablus-Palestine.**

2022

IMPLICIT CULTURAL PATTERNS IN THE EUROPEAN AND AMERICAN NOVELS

BY

Rashid Essam Murad Inaya

Supervisor

Prof. Khalil Odeh

ABSTRACT

The current study deals with the implicit cultural systems in the Western and American novels, based on the two novels *Never Let Me Go* by Kazuo Ishiguro, and a genius ... to a certain extent by Benedict Wells, in addition to other Western and American novels that were referred to in the body of the study due to the cultural and civilizational affinity between them.

The study included an introduction, three chapters and a conclusion. In the introduction, the researcher dealt with a brief introduction about the subject being studied, the aim of the study and what it seeks to achieve, in addition to its methodology.

The first chapter is concerned with rooting the concept of cultural criticism in the light of cultural studies, starting with the concept of culture, lexical and idiomatically, passing through cultural studies and the view of cultural critics to cultural criticism and the foundations on which it is based.

In the second chapter, I discussed the system of personal, sexual, and ethnic identity and the implicit crisis in that system in Western and American literature, starting from Kazuo Ishiguro's novel *"Don't Let Me Go"*.

In the third chapter, I discussed the deterministic system and what is related to it, such as free will and technological innovations in Western and American literature; Based primarily on the novel *"Genius... in a sense"* by Benedict Wells.

In the conclusion, the researcher put the results he reached and the summary of his study.

Keywords: cultural patterns, novel, European, Kazuo Ishiguro, Benedict Wells.